فن الزهد

في شعر البارودي

الدكتور

مصطفى مصطفى البسطويسي عطا

١٤١٨هـ ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ أوزعنى أن أشكرَ نعمتَك التى أنعمت علـيَّ
وعلى والدىَّ وأن أعملَ صالحاً ترضاه ، وأصلِـح
لى في ذريّتى إنى تبتُ إليكَ وإنى من المســـلمين ﴾

صدق الله العظيم



مقدمة

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين . سيدنا محمد النبي العربي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

فهذه وقفات مع فن من الفنون التي أجاد فيها باعث الشعر العربي من رقدته في العصر الحديث الشاعر محمود سامي البارودي وهو فن الزهد . وحاولت بها توضيح معالم هذا الفن عند رائد الشعر العربي في العصر الحديث ، وبيان ما يحتويه من معان وسمات وقيم دينية وأدبية .

وقد دفعني إلى كتابة هذه الوقفات ما راعني من ثراء شعر البارودي في هذا الغرض ، مع ما لاحظته من إغفال من تحدثوا عن الشاعر ودرسوا شعره لهذا الجانب ؛ فلم يخصصوا لهذا الفن في دراستهم للشاعر وشعره نصيبا كافيا يبرزه ويبين مكانته بين فنون شعر البارودي .

لذا قمت بهذه الدراسة حول فن الزهد في شعر البارودي بعد أن خصصت - من سنوات مضت - شعر الرثاء عنده ببحث قصير نشر في العدد الثاني من حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

بالمنصورة الصادر فى عام ١٩٨٩ م.[1] إيمانا منى بسد ثغرة من ثغـــرات الدراسة حول شعر البارودى ، وبأن الدراسة المتخصصة فى جانب أو فــن معين من فنون الشعر عند أحد الشعراء أفيد وأجدى فى تجلية هذا الفـــن من الدراسة العامة لفنون شعر الشاعر.

وقد جاءت هذه الدراسة بعد المقدمة فى تمهيد ، وثلاثـــة فصـــول، وخاتمة . وجاء التمهيد مختصرا عن الشاعر وأبرز سمات شعره . وجـــاء الفصل الأول فى مفهوم الزهد ، وفى الفرق بين الزهد والتصوف ، وعـــن تاريخ هذا الفن ودوافعه فى الأدب العربى قبل عصر البارودى .

أما الفصل الثانى فتحدثت فيه عن أهم الأفكار التى تناولها البارودى فى شعر الزهد ، وأبرز المعانى التى تناولها تحت كل فكرة ، مع ذكر الأمثلة لكل ما تحدثت عنه . والفصل الثالث فى أهم الظواهر الفنية التى اتسم بهـا شعر الزهد عند البارودى . وجاءت الخاتمة فى ذكر أهم النتـــائج الـــتى خرجت بها من البحث فى فن الزهد فى شعر البارودى . وأتبعت الخاتمـــة بفهرس لمراجع البحث ، ثم بفهرس آخر لموضوعات البحث ومباحثه .

وقد قصدت بهذا العمل تجلية ما ضمنته من موضوعات ، وإعطـــاء القارىء صورة واضحة عن شعر الزهـــد وخصائصـــه وموقعـــه بـــين

---

١ - فى الصفحات من ١٩٠ إلى ٢٢٦ من العدد المذكور.

موضوعات الشعر فى ديوان البارودى . وبذلت فى سـبيل ذلـك مـا استطعت من جهد . فإن كنت قد وفقت فيما قصدت إليه فهذا ما رجوته وأحمد الله عليه . وإن كان هناك من زلات وأخطـاء فـأدعو الله العفـو والمغفرة . وأرجو من القارئ الكريم أن يتجاوز عنها ويغفرها لى . فإنى لا أعدو عن كونى إنسانا يخطئ ويصيب وليس هناك إنسان يخلو مـن كـل العيوب.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يجعلـه مقبولا نافعا . إنه ﷻ سميع قريب ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

" وما توفيقى إلا بالله ِعليه توكلتُ وإليه ِأنيب "

دكتور

مصطفى مصطفى عطا

١٨ / ٣ / ١٩٩٨ م

تمهيد

البارودى وشعره

البارودى : [1]

هو محمود سامى " باشا " بن حسن حسنى عبد الله البارودى المصرى . من أسرة جركسية تنتمى إلى حكام مصر المماليك . ولد فى السابع والعشرين من رجب سنة ١٢٥٥ هـ الموافق للسابع من أكتوبر من عام ١٨٣٩ م . وكان والده (حسن حسنى) ضابطا فى الجيش المصرى . وما زال يترقى حتى أصبح من أمراء المدفعية . ثم عين مديرا لمديرية دنقلة فى السودان . وكانت أسرته تسكن مدينة إيتاى البارود فى محافظة البحيرة ، ومن ثم لقب الشاعر بالبارودى.

---

١ – اقرأ فى حياة البارودى وشعره : الأعلام للزركلى ١٧١/٧ .. والبارودى رائد الشعر الحديث للدكتور شوقى ضيف .. وكتاب : محمود سامى البارودى للدكتور عمر الدسوقى .. وكتاب : محمود سامى البارودى للدكتور على الحديدى .. وكتاب : محمود سامى البارودى للدكتور محمد صبرى .. وكتاب فى الأدب العربي المعاصر – القسم الثانى للدكتور إبراهيم عوضين .. وكتاب : شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى لعباس العقاد .. وكتاب : فى الأدب الحديث للدكتور عمر الدسوقى .. ومقدمة ديوان البارودى بقلم على غبد المقصود عبد الرحيم .. وغيرها من كتب الأدب فى العصر الحديث .

وكان الشاعر صغير السن وقت وفاة والده ؛ إذ كان فى السابعة من عمره ، كما أشار هو إلى ذلك فى رثائه لوالده فقال : (١)

مضى وخلَّفنى فى سن سابعةٍ   لا يرهبُ الخصمَ إبراقى وإرعادى

وحرم الشاعر بذلك حنان الأب ورعايته منذ المراحل الأولى من حياته . وقد كفلته أمه بعد وفاة أبيه وقامت على تربيته خير قيام ؛ فأحضرت له المعلمين الذين تلقى على أيديهم شيئا من القرآن الكريم ، والفقه الإسلامى ، والتاريخ ، والحساب ، والشعر . وفى عام ١٨٥٠م التحق البارودى بالمدرسة الحربية ، وتخرج فيها فى عام ١٨٥٤ م وهو فى السادسة عشرة من عمره .

وفى عام ١٨٧٨ م رقى البارودى إلى رتبة لواء ، وعين مديرا للشرقية ، وسرعان ما نقل محافظا للقاهرة ، وفى العام التالى عين وزيرا للمعارف والأوقاف فى وزارة محمد شريف . وفى سنة ١٨٨١ م ضمت إليه وزارة الحربية والبحرية ثم عزل عنها . وفى سنة ١٨٨٢ م ولاه الخديوى توفيق رئاسة الوزراء ، وعهد إليه بتأليف مجلس النظار الجديد بعد استقالة محمد شريف من رئاسة الوزارة للمرة الثانية . وبعد مضايقات

---

١ - ديوان محمود سامى البارودى - شرح على عبد المقصود عبد الرحيم - ط دار الجيل - بيروت - ط ١ - ١٩٩٥ م - ص ١٥٥ .

كثيرة تعرض لها البارودى ووزارته من جانب الانجليز والخديوى توفيق قدم البارودى استقالته من رئاسة الوزارة فى مايو سنة ١٨٨٢م.

وبعد أن تم للانجليز احتلال مصر فى يولية من هذا العام حوكم البارودى وعرابى ورفاقهما من قادة المقاومة الوطنية وحكم عليهما مع بعض القادة بالنفي المؤبد ، واختار لهم الانجليز جزيرة سرنديب ، وصودرت أملاكهم ، وجردوا من جميع الرتب والألقاب . وفى صبيحة يوم ٢٨ من ديسمبر ١٨٨٢م حملتهم باخرة من السويس إلى سرنديب . "ويلتاع قلب البارودى لفراق الوطن ، وتظل ساعات وداعه ماثلة فى خياله والدموع تنهمر من عينيه " . (١)

قضى البارودى فى منفاه سبعة عشر عاما أنشد خلالها الكثير من قصائده الخالدة يبثها شكواه ، ويعبر فيها عن حنينه للوطن ، ويصف فيها ما يراه فى منفاه ، ويراسل الأدباء فى مصر ، ويرثى من مات من أهله وأصدقائه ، ويتذكر شبابه وما آل إليه حاله . (٢)

وقد أورثه طول النفى العديد من العلل والأسقام ؛ فضعف سمعه

---

١ - البارودى رائد الشعر الحديث - د / شوقى ضيف - دار المعارف - ط ٣ - ١٩٧٧ م - ص ٨٢ . وانظر كتاب : محمود سامى البارودى شاعر النهضة - د / على الحديدى - ص ٢٦٣ وما بعدها.

٢ - فى الأدب الحديث - د / عمر الدسوقى - دار الفكر العربى - ط ٧ - ١٦٨/١.

وبصره ، ووهن جسمه . وفى أواخر القرن التاسع عشر أصيب البـارودى بمرض فى عينيه كاد بسببه يفقد ما تبقى له من نور عينيه ، فقرر الأطباء فى سرنديب وجوب عودته إلى وطنه لمعالجته فى مصر بين أهله وبيئته التى نشأ فيها . وفعلا عاد البارودى إلى وطنه فى الثلث الأخير من عام ١٨٩٩ م . ورد عليه عباس حلمى - بعد ذلك - أملاكه المصادرة . غير أن بصـره لم يعد إليه ففقده نهائيا.[1]

وما كادت قدماه تلمس أرض مصر حتى أنشد قصيدته الرائعة: [2]

أبابلُ رأى العين أم هذه مصرُ   فإنى أرى فيها عيوناً هى السحرُ

ولزم البارودى بيته بعد عودته من منفاه ، ولم يختلط بأحد غير أهلـه وأصدقائه المخلصين ، ومن كان يأنس بهم من الشعراء والكتاب . ووهب الشطر الأكبر من وقته لتنقيح ديوانه وتهذيبه وإعداده للطبـع وترتيـب مختاراته المشهورة حتى توفى - رحمه الله - فى الخامس عشر من ديسـمبر عام ١٩٠٤م[3] ، أو فى الثانى عشر من نفس الشهر كما يذكر الدكتـور على الحديدى .[4]

١ - انظر : محمود سامى البارودى - شاعر النهضة ٣٢٦ .
٢ - ديوان البارودى ٢٦٧ .
٣ - انظر البارودى رائد الشعر الحديث - شوقى ضيف ص ٩٥ .
٤ - محمود سامى البارودى شاعر النهضة ص ٣٥٥ .

ثقافة البارودى :

تلقى البارودى دروسه الأولى فى البيت حتى سن الثانية عشــرة . ثم التحق بالمدرسة الحربية . وأثناء دراسته بها كان كثير القراءة والاطــــلاع على دواوين كبار الشعراء العرب فى العصور الأدبية المختلفة . وكـانت "قراءة كتب الأدب والتاريخ وحفظ الشعر المنتقى الجيد هى عماد ثقافتـــه الأدبية . على أن البارودى قد اطلع علـــى آداب أخـــرى غـــير الآداب العربية... فحينما ذهب إلى الآستانة وهو فى شـــبابه والتحـــق بـــوزارة الخارجية عكف على دراسة التركية والفارسية ونظم الشعر بهما كما كان ينظمه بالعربية . أضف إلى هذا ما روى من أنه تعلم الإنجليزيـــة وهـــو فى منفاه وترجم بعض آثارها . وهذه اللغات المتعددة لها أثرها - ولا ريب - فى معانيه وأخيلته وتصويره للموت " (١)

هذا إلى جانب مصاحبته وجلساته لبعض من كان لهم دراية بالأدب واللغة من أمثال الشيخ حسين المرصفى ، والإمام محمد عبده ، وعبـــد الله فكرى ، وغيرهم ؛ مما مكنه من صقل لسانه ، وجـــودة تصـــوره لهيئـــة التراكيب العربية ، والبعد عن الأخطاء النحوية . كما يذكر الدكتور على الحديدى أن البارودى قرأ عددا من كتب اللغة مثل الأجرومية وشرحها ،

---

١ - فى الأدب الحديث د / عمر الدسوقى ١٨٥/١.

ومتن البناء . والمقصور فى الصرف ، والكفراوى وشرحه وغيرهـــا مـــن كتب النحو والصرف . مما كان له أثر فى تقويم لغته . [١]

وقد ترك البارودى من الآثار الأدبية : ديوان شـــعره وهـــو آيتـــه الكبرى التى جمعت ما هتف به من شعر أعاد به إلى الشعر العربي رونقـــه وبهاءه ، وأيقظه من سباته العميق . وقد طبع ديوان البارودى بعد موتـــه مرارا .

وبجانب شعر البارودى فى ديوانه طبعت له فى عام ١٩٠٩م قصيـدة طويلة تحت عنوان " كشف الغمة فى مدح سيد الأمة " وهـــى ملحمـــة شعرية فى مدح الرسول ﷺ تحدث فيها عن سيرة الرسول ﷺ من مولـــده إلى وفاته وعدد أبياتها ٤٤٧ بيتا وتقع فى ٤٨ صفحة . وقد نظمها وهـــو فى المنفى على وزن قصيدة " البردة " للبوصيرى .[٢]

كما ألف البارودى كتابا سماه " قيد الأوابد " وهو كتـــاب نـــثرى التزم فيه أسلوب السجع وراعى فيه الصناعة البديعية ومحسناتها ، وجمـــع فيه بعض الخواطر السانحة والرسائل التى كتبها لخاصتـــه [٣] . ويصـــور

١ - انظر محمود سامى البارودى شاعر النهضـــة - مكتبـــة الأنجلـــو المصريـــة ط ٢ / ١٩٦٩م. ص ١١ .
٢ - انظر كتاب : محمود سامى البارودى شاعر النهضة - ص ٤٣٣ .
٣ - المرجع السابق ص ٤٣٤ .

الكتاب بعض الجوانب الخفية فى حياة البارودى ، كما يعطينا صورة عـــن الأحداث والظروف التى مرت به . ولم ينشر هذا الكتاب حـــتى الآن ولا يدرى أحد أين مستقره. وقد أورد الأستاذان على الجارم ومحمد شـــفيق معروف فى مطلع تحقيقهما لديوان البارودى صورة لفصـــل مـــن هـــذا الكتاب.[1]

كما كتب البارودى مختاراته الشعرية التى انتخب فيها أشعارا مـــن ثلاثين ديوانا لثلاثين شاعرا من شعراء الأدب العربي في العصور الســابقة . بدأهم ببشار بن برد الشاعر العباسى (ت ١٦٨ هـــ) وانتهى بشـــرف الدين أبي العباس بن عنين (ت ٦٣٠هـــ) واختار البارودى من هـــذه الدواوين ما رق لفظه ، ودق معناه . وخلا من الحشو والتعقيد . وقد بـدأ البارودى انتقاء هذه المختارات فى عام ١٩٠٣م ورتب فيه الشعراء علـى حسب أزمنتهم لا على حسب مكانتهم الفنية .[2]

شعر البارودى :

أنشد البارودى الشعر فى سن مبكرة . وكان ذلك نتيجـــة حبـــه للأدب ولغته وكثرة الاطلاع على كتبه ؛ إذ كان فى مدة دراسته بالمدرسة

---

١ – انظر كتاب : محمود سامى البارودى شاعر النهضة ص ٤٣٥ .

٢ – انظر المرجع السابق ص ٤٤٠ وما بعدها .

الحربية مغرما بالعكوف على مصادر الشعر العربى القديم . وكـان حبـه للشعر القديم يزداد ويعظم بمرور الوقت . فكان يعاشر شـعراء العـرب القدماء من خلال دواوينهم يقرأ لهم وينظم على منوالهم . وبـدأ بعـد تخرجه يهتم بشعره ، وكان أكثر ما يستهويه ويستولى على لبـه أشـعار الحماسة والبطولة والقوة ، وشعر الحكمة فتمثلها وأصبحت جـزءا مـن نوازع نفسه .

ومن المعترف به أن البارودى هو رائد الشعر العـربى فى العصـر الحديث ، وأول ناهض به من كبوته فى عصرنا - كما يقول الزركلى.(١) وجاء شعره متسما بالسمات التى اتسم بها الشعر العـربى فى العصـور الأدبية الزاهرة . كما تأثر فيه بكبار الشعراء العرب الذين حفظ ووعـى كثيرا من أشعارهم فجاء شعره متسما بقوة الأسلوب ، وروعة التصويـر ، والدقة فى اختيار الألفاظ ، وانتقاء العبارات ، والبعد عن التعقيد والألفاظ الغامضة . كما استطاع أن يباعد بين شعره وبـين المحسـنات البديعيـة المتكلفة ، ولذا استحق أن يوصف بزعامته للشـعر العـربى فى العصـر الحديث .

وقد نظم البارودى الشعر فى جميع الموضوعات الـتى نظـم فيـها

---

١ - الأعلام - دار العلم للملايين - ط ٥ - ١٩٨٠ - ٧ / ١٧١ .

الشعراء العرب فى العصور السابقة ؛ فوجدنا فى شعره الكثير من قصائد المدح ، والهجاء ، والوصف ، والرثاء ، والفخر ، والعتاب .. وغيرها من موضوعات الشعر التى كانت مألوفة عند الشعراء العرب . وقد حاكى البارودى القدماء فى أسلوبهم ، وأتى بكثير من الصور العربية فى نظمه على كل غرض من هذه الأغراض . فقد وقف على الأطلال والدمن والآثار ، وأتى فى ذلك بشعر جاهلى الروح والمعنى والشكل والأسلوب ، من مثل قوله : (١)

فياليت أن العهدَ باقٍ وأننا	دوارجُ فى غُفْلٍ من العيش خاملِ
تمر بنا رعيانُ كلِّ قبيلةٍ	فما يمنحونا غيرَ نظرة غافلِ
صغيريْن لم يذهب بنا الظنُّ مذهبًا	بعيدًا ولم يسمع لنا بطوائلِ
نسير إذا ما القومُ ساروا غديةً	إلى كلِّ جُمٍّ راتعاتٍ وجاملِ

ويأتى ذلك عقب قوله فى مقدمة القصيدة نفسها :

ألا حيِّ من " أسماءَ " رسمَ المنازل	وإن هى لم تُرجِعْ بيانًا لسائلِ
خلاءٌ تعفتها الروامسُ والتقت	عليها أهاضيبُ الغيوم الجوافلِ
فَلأْيًا عرفتُ الدار بعد ترسُّمٍ	أرانى بها ما كان بالأمس شاغلى
غدت وهى مرعًى للظباء وطالما	غَنَتْ وهى مأوى للحسان العقائلِ
فللعين منها بعد تزيال أهلها	معارفُ أطلالٍ كوحى الرسائلِ

---

١ - ديوان البارودى - شرح على عبد المقصود عبد الرحيم - ص ٤٢٨ .

ونراه فى الغزل ووصف المرأة يـأتى بـالعديد مـن التشـبيهات والأوصاف القديمة المحفوظة ، من مثل قوله : (١)

تبع الهـوى قلـبى فـهام وليتـه ... قبـل التوغـل فى البـلاء تثبتـا
ألقتـه فى شـرك المحبـة غـادة ... هيهات ليـس بصـاحبى إن أفلتـا
كالورد خداً ، والبنفسـج طـرة ... والغصن قـدا ، والغزالـة ملفتـا

وقوله : (٢)

غصنُ بان قد أطلع الحسـنُ فيـه ... بيـد السـحر جلنـارا ووردا
ما هلالُ السماءِ؟ ما الظبىُ؟ ما الور ... دُ جنيا ؟ ما الغصـنُ إذ يتـهدى ؟
هو أبهى وجـهاً ، وأقتـلُ لحـا ... ظاً ، وأندى خـداً ، وألـينُ قـدا

بل ونقرأ فى غزله كثيرا من الأوصاف المادية التى كـان يرددهـا القدماء فى أشعارهم فى المرأة . فنقرأ له مثل قوله : (٣)

خوطيةُ القد لو مـرَّ الحمَـامُ بهـا ... لم يشتبه أنها مـن أيكـه انـتزحتْ
خفَّتْ معاطفُـها لكـن روادفُـها ... بمثل ما حملتنى فى الهـوى رَجَحَـتْ
ويلاه من لحظها الفتاك إن نظـرَتْ ... وآه من قدِّها العسال إن سـنحتْ
أنال من ثغرها الدرىِّ مـا سـألَتْ ... نفسى ومن خدِّها الوردى ما اقـترَحتْ

---

١ - ديوان البارودى ٨٣ .
٢ - ديوان البارودى ١٧٥ .
٣ - ديوان البارودى ٩٨ .

وقوله : (١)

والوعةَ القلب من غـزلانِ أخبيـةٍ   تكاد تسكرُ من أحداقـها الـراحُ
من كل مائسة كالغصن قد جمعت   بدائعا كلّـها للحسـن أوضـاحُ
فالعينُ نرجسةٌ ، والشّعر سوسـنةٌ   والنـهدُ رمانـةٌ ، والخـدُّ تفـاحُ

ونراه فى فخره يتكىء على مقومات الفخر القديم ، ويردد فيه مـا كان يردده الشاعر العربى القديم فى هذا المقام فنقرأ له قولـه فى الفخـر بقومه : (٢)

لهـم عُمُـدٌ مرفوعـةٌ ومعـاقل   وألويـةٌ حمـرٌ وأفنيـةٌ خضـرُ
ونارٌ لها فى كلّ شـرقٍ ومغـربٍ   لمـدَّرعِ الظلمـاءِ ألسـنةٌ حمـرُ
وخيلٌ يعـمُّ الخـافقين صهيلُـها   نزائعُ معقـودٌ بأعراقِـها النصـرُ
معـوَّدةٌ قطـعَ الفيـافى كأنها   خداريةٌ فتخـاءَ ليـس لهـا وَكْـرُ

وفى وصفه للخمر وحديثه عنها يستعير الكثير من أوصاف القدمـاء وحديثهم عنها فنقرأ له مثل قوله : (٣)

أدر الكـأسَ يـا نـديمُ وهـاتِ   واسـقنيها علـى جبـين الغـداةِ
أىّ شيءٍ أشهى إلى النفس من كـأ   سٍ مـدارٍ علـى بسـاطِ نبـاتِ

---

١ - ديوان البارودى ١٠٣
٢ - ديوان البارودى ٢١٦ .
٣ - ديوان البارودى ٨٠ .

وقوله :

زمزمى الكأسَ وهـــاتى   واســقنيها يـا مـــهاتى
وامزجيــها برضـــاب   منكِ معســـولِ اللـــهاة
إنما الراحُ مـــدارُ الـــ   أنسِ فى كـــلِّ الجـــهاتِ
طالمـا عــاصيتُ فيـــها   أهــلَ ودِّى ونُهـــاتى
لا أبــالى فى هواهــا   بســـماعِ الترَّهـــاتِ

وقوله فى وصف تأثير الخمر فى شاربيها : (١)

إذا ما شربناها أقمنا مكانَنـــا   وظلَّت بنا الأرضُ الفضاءُ تدورُ

وهكذا فى بقية أغراضه الشعرية القديمة .

ولكن البارودى إذا كان قد قلد القدماء وحاكاهم فى أغراضـــهم وفى أسلوبهم وطريقة عرضهم لمثل هذه الأغراض ، واقتبس كثـــيرا مـــن معانيهم وصورهم ، فإن له مع ذلك الكثير من التجديدات فى شـــعره ؛ فقد أدخل على شعره كثيرا من مظاهر التجديد فى الألفاظ والتعبـير ، وفى المعانى والصور الفنيه ، وكان فى ذلك معبرا عـــن شـــعوره وأحاسيســـه ومصورا لمشاهداته ومرئياته . كما أنه قد جاء بالكثير من الصور الـــتى لم يسبق إليها والتى لبى بها ما يستوجبه عليه عصره الذى يعيش فيه ، وبيئتـه وما يراه فيها .

---

١ - ديوان البارودى ٢٠٨.

ففى وصفه للطبيعة – مثلا – نجده يصف مناظر الريف المصــرى ، ويصورها تصويرا بديعا يعبر عن حساسية غريبة وإحساس مرهف ، ويعبر عن شغف بالطبيعة وحب لها . فنقرأ له فى هذا الباب أشعارا فى وصـــف حقول القطن ، وفى وصف السفن فى نهر النيـــل ، ووصـــف الســاقية والمزروعات والطيور وحركاتها وهى تحوم على صفحة النهر . وفى وصـف النحلة وهى تتهادى من زهرة إلى زهرة .. إلى غير ذلك مما تمتلـــىء بـــه طبيعة الريف المصرى .

اقرأ له – مثلا – فى وصف القطن : (١)

والقطـنُ بـين ملـوَّزٍ ومنـوَّرٍ ... كالغادةِ ازدانَت بـأنواعِ الحِلَى
فكـأنَّ عـاقدَه كـراتُ زمـرَّدٍ ... وكأن زاهـرَه كواكـبُ فى السُّرا
دبت به روحُ الحياةِ فلـو وَهَـتْ ... عنه القيودُ من الجداولِ قـد مَشَى
فأصولُه الدكناءُ تسبح فى الثَّرَى ... وفروعُه الخضراءُ تلعَـبُ فى الهَوا

كما وصف البارودى كثيرا من مظاهر الحياة فى عصره كقولـــه فى وصف القطار : (٢)

ولقد علوتُ سراةَ أدهمَ لو جَـرَى ... فى شـأوِهِ بـرقٌ تعـثَّر أو كَبَـا
يطوى المدَى طى السجل ويـهتدى ... فى كل مهمهةٍ يضـلُّ بهـا القطَـا

١ – ديوان البارودى ٤١ .
٢ – ديوان البارودى ٤٠ .

يجرى على عجلٍ فلا يشكو الوَجَى ... مدَّ النهار ولا يمَلُّ من السُّرَى
لا الوخدُ منه ولا الرسيمُ ولا يُرى ... يمشى العرضنَةَ أو يسيرُ الهيدبَى
ريَّانُ ملءُ ضلوعه لكنه ... يشكو بزفرته لهيباً فى الحَشَا

وله فى الشعر السياسى الكثير من الأشعار الجديدة فى بابها والتى عبر بها عن كثير من المعانى الوطنية والنظم السياسية . من مثل قوله عن نظام الشورى أثناء مدحه للخديوى توفيق : (١)

سن المشورةَ وهى أكرمُ خطةٍ ... يجرى عليها كلُّ راعٍ مرشدِ
هى عصمةُ الدين التى أوحى بها ... ربُّ العبادِ إلى النبىِّ محمدِ
فمن استعانَ بها تأيّد ملكُه ... ومن استهانَ بأمرها لم يرشدِ
أمران ما اجتمعا لقائدِ أمةٍ ... إلا جنَىَ بهما ثمارَ السؤددِ
جمعٌ يكون الأمرُ فيما بينهم ... شورى وجندٌ للعدو بمرصدِ
هيهات يحيا الملكُ دون مشورةٍ ... ويَعَزُّ ركنُ المجد ما لم يعمدِ

وفى شعر الهجاء نجد للبارودى نوعا من الهجاء الاجتماعى يسير فيه على غير عادة الشعراء .فهو فيه يشكو ظلم الناس ونفاقهم وغدرهم ، ويصور عيوب القوم فى المجتمع ، ويحثهم على إصلاح تلك العيوب . ومن ذلك قوله يذم زمانه وينعى على معاصريه تلونهم وعدم وفائهم فى تعاملهم مع بعضهم : (٢)

---

١ – ديوان البارودى ١١٠ .
٢ – ديوان البارودى ٣١ .

أنـا فى زمـان غـادر ومعاشـر يتلونـون تلـون الحربـاء
أعداءُ غيبٍ ليس يسلم صاحبٌ منهم وأخوةُ محضرٍ ورخاء
أقبحْ بهم قوماً بلوتُ إخاءهم فبلوتُ أقبحَ ذمةٍ وإخاء
قد أصبحوا للدهر سبةَ ناقمٍ فى كلِّ مصدر محنةٍ وبلاء
وأشدُّ ما يلقى الفتى فى دهره فقدُ الكرام وصحبةِ اللؤماء

إلى غير ذلك مما نجده فى شعره من معان جديدة ، وصور غير مألوفة، ومضامين لم تعهدها فى الشعر العربي القديم ، وأساليب تعبر عن شخصية البارودى دون سواه.مما يدل على أن ميله إلى القديم وتقليده فى شعره لم يكن عن اقتناع منه أن ذلك هو الأسلوب الأمثل ، والواجب اتباعه ، أو أنه النهج الوحيد الذى عليه أن يسلكه فى شعره ؛ ولكن ذلك كان من باب امتحان شاعريته واختبار مقدرته الفنية ؛ فأراد أن يثبت لنفسه أن فى استطاعته أن يحاكى القدماء فى أشعارهم ، وفيما تحتويه من مقومات ومضامين . فإذا ما أثبت لنفسه ذلك اطمأن إلى شاعريته ، وانطلق – وهو مطمئن – يخوض غمار هذا الميدان ، ويعبر عن كل ما يدور حوله ، ويمتلىء به زمانه.

فالتقليد فى شعر البارودى لم يكن " إلا مظهرا من مظاهر التجديد؛ فقد كان فى تقليده لشعر العباسيين وأسلافهم ثائرا على منهج معاصريه ومن سبقهم ممن التزموا بالسير على منوال الشعراء المملوكيين

والعثمانيين"[1]

فإن كان البارودى قد عرف بتقليده ومعارضته لشـــعراء العربيـــة الكبار فى العصور الأدبية الأولى – وخاصة شعراء العصر العباسى – فإنـه قد أمدنا بشعر كثير وضحت فيه لمسات البارودى العصرية التى تنم عـــن انتمائه إلى العصر الذى يعيش فيه ، وبهرنا بتلك الأحاسيس التى يتأثر بهـــا كل من يقرأ شعره الوجدانى . حتى ليجد القارىء فى شعره الذى يعـارض به شعر غيره شيئا غير مجرد التقليد . وجاء تفوق البارودى فى محاكاة هـذا النمط العالى من الشعر القديم بمثابة الأمل الذى يعيد إلى أبنـــاء عصـــره ثقتهم فى مواهبهم المعاصرة وفى أنفسهم ، ويثبت أن الزمـــن مـــا زال فى إمكانه أن يمد الأدب العربى بالشعر الرفيع الذى يماثل أقـــوى النمـــاذج الشعرية التى ظهرت فيه فى العصور السابقة.

ومن ناحية أخرى فقد برز فى شعر البارودى عنصر الذاتية بجـــانب نظرته المتميزة للحياة والناس واتصافه بوجدان يقظ يرصد بـــه المجتمـــع والطبيعة والناس .

وهكذا اجتمع لشعر البارودى كل المقومات التى أمدته بأسلوب إن

١ – فى الأدب العربى المعاصر – القسم الثانى – د / إبراهيم عوضين – مطبعة الســـعادة – الطبعة الأولى – ١٩٧٦ ص ١٤٣ .

يكن قديما فى شكله وبعض خصائصه إلا أنه جديد بالنسبة لعصره ، متفوق بالنسبة لعصور التخلف التى مر بها الشعر العربى قبله .[١] يقول الدكتور عبد القادر القط في هذا الجانب من شعر البارودى [٢] : " وإذا كانت ضرورة النظر إلى التراث قد دفعت الشاعر إلى أن يبنى قصيدته على نمط القصيدة الطويلة بأقسامها التقليدية المعروفة فإن إلحاح المحنة على وجدان البارودى كان يتسلل إلى مطالع القصيدة فيشيع فيها معانى وصورا قد تبدو فى ظاهرها متسقة مع المطلع العاطفى . لكنها إذا أفردت وانتزعت من سياقها بدت تعبيرا صريحا عن تلك المحنة ".

فليس تقليد البارودى للشعراء العرب فى العصور الأدبية السابقة شيئا يقلل من القيمة الفنية العظيمة التى يتسم بها شعره . بل إن ما قام به البارودى من محاكاته لهؤلاء الشعراء ومعارضته لهم يعد من حسنات البارودى وأفضاله على الشعر العربى كما يقول العقاد ، وكما يفهم من النص التالى له : [٣]

١ - من مقال الرثاء فى شعر البارودى للمؤلف - العدد الثانى من مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة ص ٢٢١ ببعض التصرف.
٢ - الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر - مكتبة الشباب بالقاهرة - ١٩٨٦ م ص ٣٠ .
٣ - شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى - دار نهضة مصر - الفجالة - القاهرة - ص ١٤١.

" وربما كانت محاكاة البارودى للأقدمين هي أنفع ما فى شعره للأدب المصرى الحديث لأنه ردَ إلى المعاصرين القدرة على مجاراة العباسيين والمخضرمين والجاهليين فى ميدان اللغة والتركيب بما أتقن من معارضتهم فى المذاهب والأساليب.وليس أدعى من هذه الثقة إلى الابتكار والاستقلال والاعتماد على النفس والإفلات من قيود التقليد. فإذا حسبنا للبارودى سليقته المستقلة وشخصيته المعبرة ونزعته إلى الاعتراف بحق العصر على الشاعر فلا ننسى أن نحسب له جودة التقليد وما استتبعه من حسن الثقة وعزيمة النهضة " .

ويقول العقاد فى موضع آخر : [١]

" وله – على هذا – ميزة واضحة لا نظير لها فى تاريخ الأدب المصرى الحديث ؛ وتلك أنه قد وثب بالعبارة الشعرية وثبة واحدة من طريق الضعف والركاكة إلى طريق الصحة والمتانة . وأوشك أن يرتفع هذا الارتفاع بلا تدرج ولا تمهيد وكأنه القمة الشاهقة تنبت فى متون الطود عما قبلها فينقطع بينها وبينه الوصول إلا أن تستدير لها من القمم التى تليها وتقرب منها " . ثم يقول العقاد [٢] : " وهذه وثبة قديرة فى تاريخ الأدب المصرى ترفع الرجل بحق إلى مقام الطليعة أو مقام الإمام".

١ – المرجع السابق ص ١١٠ ، ١١١

٢ – المرجع السابق ص ١١١ .

ويقول الزركلي عن شعره [1] : " أما شعره فيصح اتخاذه فاتحة للأسلوب العصرى الراقى بعد إسفاف النظم زمنا غير قصير".

ومن هذه النصوص كلها نتعرف على قدر شخصية البارودى الشاعر وعلى مكانة شعره فى الأدب العربى . فالبارودى – كما يقول الدكتور على الحديدى – [2] " لم يتعلم العروض والقوافى ليقول الشعر شأن معاصريه ، وإنما تغنى لأن موهبته الشعرية فرضت عليه التعبير عن العواطف والأحاسيس التى تموج فى نفسه ، ولأن الشعر فى سليقته ... فجاء بأنغام فى الشعر لم يألفها أهل زمانه ، وسما به إلى مكان الفحول من الشعراء الأولين فى الجاهلية والعصور الأولى من الإسلام . وكان النبى الذى بعثته العناية الإلهية لينفخ فى الشعر العربى روحا تنشره من الضعف الذى انطوى عليه القرون الطوال وتبعثه من جديد " .

وهكذا جاء شعر البارودى فى نهاية الأمر ممثلا لشخصية صاحبه ، ومصورا خوالج نفسه ، ومعبرا عن أحاسيسه ، وراسما أصدق صورة لواقع المجتمع الذى عاش فيه ، وما كان يحدث فيه من وقائع وأحداث.

---

١ – الأعلام ٧/ ١٧١ .
٢ – محمود سامى البارودى شاعر النهضة ص ٧٥ .

الفصل الأول

مفهوم الزهد وتاريخه فى الأدب العربى

مفهوم الزهد :

الزهد فى اللغة : ضد الرغبة والحرص على الدنيا . والزهد فى الشيء وعن الشيء : خلاف الترغيب فيه . وزهده فى الأمر : رغبه فيه . وفى قوله – تعالى – : " وكانوا فيه من الزاهدين " (١) ، قال ثعلب : اشتروه على زهد فيه . (٢) وفى حديث الزهرى وقد سئل عن الزهد فى الدنيا فقال : " هو ألا يغلب الحلال شكره ، ولا الحرام صبره . أراد ألا يعجز ويقصر شكره على ما رزقه الله من الحلال ، ولا صبره عن ترك الحرام ".

وفى الاصطلاح : الكف عن المعصية وعما زاد عن الحاجة وترك ما يشغل عن الله ، ثم الكف عن أمور الدنيا جميعا بتخلية القلب والتقشف التام وترك كل ما هو مخلوق . (٣)

" والزهد فى الدنيا فى المعتقد الإسلامى لم يكن المقصود به كراهية

---

١ – من الآية رقم ٢٠ من سورة يوسف .
٢ – لسان العرب – طبعة دار المعارف – مادة (زهد) .
٣ – دائرة المعارف الإسلامية – ترجمة أحمد الشفنتاوى وحافظ جلال ١٠/ ٤٥١ .

الدنيا وعدم الالتفات إليها . وإنما كان المقصود به عــدم حـب الدنيــا والتمسك بها . وفرق كبير بين المترلتين : فالكراهية تدعــو إلى التبــاعد والدفع والنفور . وعدم الحب ليس فيه أكثر من عدم الاهتمــام وعــدم الالتفات والترقب والتطلع ". (١)

وقد وردت فى كتب التراث العربى والإسلامى أقــوال كثــيرة فى توضيح مفهوم الزهد فى الدنيا تؤكد كلها المعنى السابق وتقويه ، وتبــين حقيقة النظرة الإسلامية إلى الزهد . ومن ذلك ما ورد فى كتاب العقــد الفريد لابن عبدربه الأندلسى من أقوال عديدة فى معنى الزهد والمراد به . وهذه أهمها : (٢)

- العتبى برفعه قال : قيل لرسول الله ﷺ : - ما الزهد فى الدنيــا ؟ قال : أما إنه ما هو بتحريم الحلال ولا إضاعة المال . ولكــن الزهــد فى الدنيا أن تكون بما فى يد الله أغنى منك عما في يدك .

- وقيل للزهرى : ما الزهد ؟ قال : أما إنه ليس بتشعيث اللمة ولا قشف الهيئة ، ولكنه صرف النفس عن الشهوة .

١ - شعر الزهد فى القرنين الثانى والثالث للهجرة - د / على نجيب عطــوى / المكتــب الإسلامى بيروت - ط١ /١٩٨١ م ص ١٣٠ .
٢ - العقد الفريد - ابن عبد ربه - تحقيق : محمد سعيد العريــان - ط دار الفكــر - بدون تأريخ ٣/١٠٥ - ١٠٦

وقيل لآخر : ما الزهد فى الدنيا ؟ قال ألا يغلب الحرام صبرك ولا الحلال شكرك .

- وقيل لرسول الله ﷺ : يا رسول الله : من أزهد الناس فى الدنيا ؟ قال : من لم ينس المقابر والبلى ، وآثر ما يبقى على ما يفنى ، وعد نفسه مع الموتى .

- وقيل لمحمد بن واسع : من أزهد الناس فى الدنيا ؟ قال : من لم يطلب المفقود حتى يفقد الموجود.

- وقال النبي ﷺ : - الزهد فى الدنيا مفتاح الرغبة فى الآخرة، والرغبة فى الدنيا مفتاح الزهد فى الآخرة .

وقال ابن السماك : الزاهد الذى إن أصاب الدنيا لم يفرح ، وإن أصابته الدنيا لم يحزن . يضحك فى الملا ويبكى فى الخلا.

- وقال الفضيل : أصل الزهد فى الدنيا الرضا عن الله تعالى .

وهذه الأقوال كلها تؤدى إلى مفهوم واحد للزهد . وهو عدم الرغبة فى الدنيا وعدم الإقبال عليها أو التعلق الشديد بها وبمتاعها وترقب زوالها ، وعدم الاطمئنان إليها ، والصبر على ما يصيب الإنسان فيها من مكروه . والاشتغال بأمور الآخرة وبما ينفع الإنسان فيها وينجيه من

عذاب يوم القيامة . " فالزهد فى نظر الإسلام هو أسلوب من الحياة يحياها المؤمن ، وموقف خاص من الدنيا وزخرفها وشهواتها ولذاتها ومن النفس ومطامعها ، وأخذ الإنسان نفسه بالمجاهدات الروحية والبدنية . وهو بهذا المعنى إسلامى حث عليه الدين وأخذ به النبى وأصحابه " (١) .

فالزهد فى الحقيقة نمط سلوكى إنسانى يؤدى إليه التكوين النفسى لبعض الأفراد من جهة ، وتساعد عليه الظروف الاجتماعية من جهة أخرى ؛ فالناس فى كل زمان ومكان – بحكم تكوينهم النفسى – منهم الانبساطى المتفتح للحياة ، المقبل عليها فى نهم ، ومنهم الانقباضى العازف عن الحياة المعرض عنها الزاهد فيها . وكما يكون الخوف من الموت ومصير الإنسان بعد هذه الحياة دافعا لبعض الناس فى بعض الأحيان إلى الإسراف فى الانغماس فى الحياة والاشتغال بملذاتها فإنه يكون كذلك لدى بعضهم داعيا إلى الزهد فى الحياة والانصراف عن متعها ولذاتها . (٢)

أما عن مفهوم الزهد فى الاصطلاح الأدبى فيعنى تناول الأديب فى أدبه ما يدل على المعانى السابقة،فشعر الزهد هو ذلك الشعر الذى يركز فيه الشاعر حديثه على الإنسان ودوره فى الحياة وموقفه منها وما فيها من

---

١ – شعر الزهد فى القرنين الثانى والثالث للهجرة ص ٢٩ .

٢ – انظر : فى الشعر العباسى الرؤية والفن – د / عز الدين إسماعيل – المكتبة الأكاديمية ١٩٩٤ م – ص ٢٧٦ .

متاع . " وهل يجب عليه أن يقف من هذه الحياة موقف الساخر العـــابث اللاهى الذى ليس له هم إلا المتعة ؟ أم أن له رسالة ينبغى ألا يتخلى عنها؟ وأن هذه الرسالة هى على درجة كبيرة من الإنسانية ؛ لأنها تطلب منـه أن يشارك الآخرين فى كل قضاياهم القائمة أو الطارئة . فهو ما خلق فى هـذه الدنيا عبثا ، بل خلق ليقضى ما طلب منه ثم يرحل عنها . ومن هنا كـــان حديثهم يطول عن الموت والآخرة والعذاب وذم الحياة والزهد فيـــها. إلى غير ذلك من الأفكار الجديدة ".[1]

الفرق بين الزهد والتصوف :

يخلط كثير من الناس بين الزهد والتصوف ، حتى إن بعضهم يفـــهم من التصوف بأنه هو الزهد ، ولا يفهم من كلمة (الصوفى) إلا أنه هـــو الزاهد فى الدنيا ، مع أن الفرق كبير بين الزهد والتصوف .وقد تحـــدث الدكتور عزيز فهمى عن الفرق بين الزهد والتصوف ، وأوضح أن الفـرق بينهما يكمن فى وجود فرق بينهما فى الغاية ، وفى الفكرة ، بجانب بعـــض الفروق العامة .

فالزهد يتطلب من الزاهد الانصراف عن الدنيا وملذاهـــا وإنكـــار النفس وشهواها وتحمل مرارة الجوع والعطش طمعا فى الآخرة وجنـــات

١ - شعر الزهد فى القرنين الثانى والثالث للهجرة ٣٥٢ .

النعيم . أما التصوف فهو أن يفنى الصوفى فى حاضره فناء ، وأن يكـــون هدفه معرفة الله والاتصال به .

أما فى الفكرة : فالزاهد محوط بجلال الله وجبروته وعقابه وبطشــه ، والصوفى ناعم البال فى رحمة الله ولطفه وكرمه ، وفوق كل شيء محبته.

أما عن الفرق العام بين الزهد والتصوف فـــالزهد عـــام فى جميـــع الأقطار ، وفى كل دين وجيل . أما التصوف فنزعة إسلامية خاصة ولدتهـا عوامل شتى فى ظروف خاصة تحت راية الإسلام.(١)

ومعنى هذا أن الزهد ليس مقصورا على الإسلام والمسلمين ، وإنمـــا هى ظاهرة عامة فى كل دين ، ولدى أتباع جميع الديانات.ويؤيد هذا مـــا ذكره الدكتور يوسف خليف من ظهور موجة من الزهد المانوى بجـــانب الزهد الإسلامى فى العصر العباسى دعت إليه جماعات من زنادقـــة هـــذا العصر الذين اعتنقوا المانوية . " وقد ظهر من بين هؤلاء الزهاد المـــانويين شعراء عبروا عن مذهبهم فى الحياة ورفضهم لها وانصرافهم عن متاعـــها الزائل . على نحو ما نرى عند صالح بن عبد القدوس الذى قتل لمانويتـــه من أشعار تفيض بهذا الزهد الغريب على الإسلام . وهو زهـــد جـــدت

١ - انظر : المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصر الأول - تحقيق قنديل البقلـــى - دار المعارف - ص ٢٣٤ .

الدولة فى محاربته ومحاربة أصحابه ، وراحت تطارده وتطاردهم مطـــاردة شديدة " [(١)]

ونتيجة للخلط بين الزهد والتصوف وجد هناك مـــن يخلـــط بـــين الزاهد والصوفى والعابد . وقد تحدث ابن سينا عن الفرق بـــين هـــؤلاء وهدف كل منهم من عبادته الله – عز وجل – فيرى أن المعرض عـــن متاع الدنيا وطيباقما يخص باسم (الزاهد) . أما المواظـــب علـــى فعـــل العبادات من القيام والصيام ونحوهما فيخص باســـم (العـــابد) . وأمـــا المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديما لشروق نور الحق فى ســـره فيعرف باسم (العارف) وهو المعنى بالصوفى عند ابن سينا . [(٢)]

أما عن هدف الصوفى والزاهد : فالزاهد إنما يهدف مـــن زهـــده الاستمتاع فى الآخرة . فزهده نوع من المعاملة ، كأنه يشترى بمتاع الدنيا متاع الآخرة . أما الصوفى فإنه يزهد فى الدنيا لأنه يتتره عن أن يشغله شئ عن الله والاتصال به . وعبادة غير الصوفى هدفها دخوله الجنة كأنه يعمـــل فى الدنيا لأجرة يأخذها فى الآخرة . أما عبادة الصوفى فإنها استدامة لصلته بالله – تعالى – إنه يعبد الله لأنه يستحق العبادة ، ولأنها نسبة شريفة إليـــه

١ – فى الشعر العباسى نحو منهج جديد – د / يوسف خليف – مكتب غريب – ص٣٠ .
٢ – قضية التصوف المنقذ من الضلال – د./ عبد الحليم محمود – دار المعـــارف – ط ٢ ص ٤٠ بعض التصرف .

لا لرغبة أو رهبة .

ونخلص من هذا إلى أن التصوف يعتبر مرحلة تالية لمرحلة الزهـــد . فقد ظهر الزهد أولا ، ثم تطور مفهومه فى القرن الثانى الهجرى من زهـــد قائم على الخوف والرهبة من الوقـــوع فى الخطـأ والمعـاصى واتبـاع الشهوات، إلى القول فى الحب الإلهى والشوق إلى لقاء الله وإيثار ما عنـده على ما حول الزاهد فى الدنيا . " وبعد أن كان هذا الزاهد يتجـه إلى الله – سبحانه وتعالى – خوفا ورهبة من ناره نجده بعد ذلـك يتجـه إلى الله – عز وجل – حبا فى ذاته ، وعشقا لصفاته لا طمعا فى جنتـه . أى أن هذا الحب اتجه إلى ذات الله لأنه – عز وجل – أحق بهذا الحـب . فلـم يعد الله معبودا فقط ، بل أصبح المعبود المحبوب .

ففى القرن الثانى الهجرى إذن كانت بداية نشأة التصوف وتطـوره الأول . وقد أصبحت كلمة (صوفى) تطلق على العابد الزاهد اللابـس للصوف . حتى إذا جاء القرن الثالث وجدنا أن التصوف أصبـح علمـا للنفس والأخلاق فالفناء فى وجود النفس والاتحاد بالخالق [1] . "

فظاهرة التصوف إذن سارت فى إطار التدين أول الأمر ، ثم واكبت تيار الزهد ، ثم تطورت إلى أن أصبحت نهجا روحيا له أصولـه وأسسـه

---

١ – شعر الزهد فى القرنين الثانى والثالث للهجرة ص١٣١ .

وخصائصه التى جعلته مستقلا عن الزهد . وظهر فيه أعلام كبار عرفـــوا بتصوفهم واشتهروا به .

الزهد ودوافعه فى الأدب العربى :

لم يكن تيار الزهد من ابتداع العصر العباسى كما يعتقد البعـــض . وإنما هو تيار يرجع إلى ما قبل ذلك بكثير . إذ يمكننا أن نرجع بـــأصول الزهد إلى عهد الرسول ﷺ والتماسها فى بعض آيات القـــرآن الكـــريم ، وبعض المأثور من حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم .

فنحن نجد الدعوة إلى الزهد فى الحياة الدنيا ومتاعها الزائل تتردد فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف . فالمسلم الحق فى نظر الإســـلام هو من عاش للآخرة ورفض عرض الدنيا والانغماس فيها ، ولم يأخذ منـها إلا بحظ محدود يقيم به أوده ويمكنه من الكفاح فى سبيل الله .

والزاهد الأول فى الإسلام هو رسول الله محمد ﷺ والذى ضـــرب للمسلم أروع المثل فى الحد من الإقبال على الدنيا والانغماس فى لهوهـــا ومتاعها ، وحث المسلم فى الكثير من أقواله على الإعراض عـــن الدنيـــا وعدم التعرض لها . " وقد اندفع وراءه كثير من الصحابة يحيـــون حيـــاة زاهدة متقشفة . وعلى رأسهم أهل الصفة وهم نفر من فقراء المســـلمين اتخذوا صفة المسجد مترلا لهم ، وعاشوا على صدقات الرسول والمثرين ،

يعبدون الله حق عبادته مرتلين آى الذكر الحكيم . وكان وراءهم كثيرون أخلصوا أنفسهم لتقوى الله حق تقواه . وعلى رأسهم أبو بكر ، وعلىّ ، وعمر ، وعبد الله بن عمر ، وأبو الدرداء ، وأبو ذر ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص وكان يقطع النهار صائما والليل قائما يصلى لربه [1] " .

وكثر الزهاد فى عهد الخلفاء الراشدين وفى العصر الأموى بعد أن أخذ كثير من المسلمين آنذاك يعيشون حياتهم للنسك والعبادة . وكان إقليم العراق يضم أكبر عدد من هؤلاء النساك والقراء والعباد . " وربما كان لكثرة الحروب فيه أثر فى ذلك . وكأن قوما انصرفوا عن الفتن خشية على أنفسهم من التورط فى الإثم إلى النسك فى العبادة . كما انصرف إلى ذلك كثيرون ممن لم يستطيعوا الانتصار على الأمويين فتركوهم ودنياهم ، ومضوا يتعبدون ...

لذلك كله عمت فى العراق موجة واسعة من التقوى والزهد فى الدنيا ونعيمها المادى [2] " .

ومع انتشار موجة الزهد والعبادة فى العصر الأموى وجدت طائفة كبيرة من الوعاظ فى هذا العصر . وهم جماعة عاشوا حياتهم لوعظ الناس

---

١ - العصر الاسلامى - د / شوقى ضيف - دار المعارف - ط ٨ - ص ٣٧٠ .
٢ - المرجع السابق ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .

وإرشادهم ودعوتهم إلى النسك والعبادة وعدم الإقبال علـــى الدنيـا . وتذكيرهم بالموت وما بعده من البعث والحساب والجنة والنار يوم القيامـة . ويأتى الحسن البصرى فى مقدمة هؤلاء الوعاظ الذين كانت لمواعظـهم الأثر العميق فى نفوس بعض الشعراء الأمويين الذيـن كـانوا يحضـرون مجالسهم وأخذوا يعبرون عن تأثرهم بهذه المواعظ فى شعر دينى تحول عنـد بعضهم إلى مواعظ دينية خالصة .على نحو ما نرى فى شعر عروة بن أذينة، وعبد الله بن عبد الأعلى ، ومسكين الدارمى ، وغيرهم .

وأخذت موجة الزهد والتقشف والدعوة إلى ترك الدنيا والابتعـاد عن شهواتها تزداد قوة وانتشارا فى العصر العباسى ، وانتشر الوعـاظ فى كل مكان فى هذا العصر . وكان وراء هؤلاء الوعـاظ نسـاك وزهـاد انصرفوا عن متاع الدنيا الزائل ، وتعلقت نفوسهم بمتاع الآخرة . ومـن بين هؤلاء النساك والزهاد ظهرت طائفة من الشعراء الذين اتخذوا مـن الزهد مادة لشعرهم ، وموضوعا ينشدون فيه الكثير من القصائد . ويأتى فى مقدمة هؤلاء الشعراء : عبد الله بن المبارك (ت ١٨١ هـ) ، ومحمد ابن كناسة (ت ٢٠٧ هـ) ومحمود الوراق (ت ٢٣٠ هـ) .

وقد كثر الزهاد فى بغداد فى العصر العباسى . وكان انتشار موجـة الفسق والفجور، وبجانبها موجة الزندقة والمجون التى انتشرت بين طوائـف

عديدة فى المجتمع العباسى ، وأحدثت رد فعل عنيفا عند جماعات أخرى كثيرة من أبناء المجتمع أخذت تشق طريقها فى اتجاه مغاير لما عليه أنصار الاستهتار والمجون ، والخروج على الدين . وراحت تعبر عن نفسيتها وأفكارها فى أشعار زهدية رائعة حملت فى طياتها تأملات حياتية عميقة ونظرات إنسانية صافية . وكانت فى طبيعتها قريبة من نفوس الجماهير ومشاكلهم ، ومتصلة بقضاياهم ونوازعهم ، ومعبرة عن صميم واقعهم .

وكان وجود هؤلاء الزهاد فى بغداد وإسلوبهم المؤثر فى التعبير مزعجا لهؤلاء المجان والمتهتكين ، ومقلقا لراحتهم ولهوهم ؛ مما جعل هؤلاء يشنون عليهم الهجوم مرة بعد أخرى . كابن المبارك الذى يذم ناسكا متعبدا يسكن بغداد فيقول : [1]

أيها الناسكُ الذى لبس الصو ... فَ وأضحى يُعَدُّ فى العبَّادِ
ألزم الثغرَ والتعبدَ فيه ... ليس بغدادُ مسكنَ الزهادِ
إن بغدادَ للملوك محلٌّ ... ومناخٌ للقارئ الصيَّادِ

كما عرفت الكوفة الكثير من شعراء الزهد الذين أنشدوا الكثير من هذه الأشعار كمسعود بن كدام ، وداود بن نصير الطائى ، وحسن ابن صالح ، وأبى العتاهيه ، وغيرهم .

---

١ - تاريخ بغداد - الخطيب البغدادى - دار الكتب العلمية - بيروت - ص ٢٨ .

" وقيمة هذه الزهديات أنها محصلة أيام وأيام من التجربة ، والتفكير العميق ، والرؤية الصافية والراحة النفسية اللا متناهية . بحيث تكون علامات فارقة فى حياة البشر وتاريخهم ، مرافقة الإنسان فى كل زمان ومكان ، ملازمة له ، موقظة فيه مشاعر الإجلال والرهبة والخشوع والإيمان . فكان ذلك خير سلاح يشهرونه فى أوجه الغائبين عن الحياة وعن ذكر الله التائهين الغارقين فى الشراب . فيهزون بأقوالهم هذه مشاعرهم ، ويدخلون رهبة الخالق إلى نفوسهم ؛ إذ كثيرا ما أخذ الزهاد بتلابيب الخلفاء والملوك وذوى السلطان والجاه والمال ، وقرعوهم بعنف القول وعميق الحكمة " [1] . واحتفظت لنا كتب التراث بالكثير من أقوال الزهاد مع الخلفاء وذوى السلطان .

ومن ذلك ما يحكى عن ابن السماك أنه قال لهارون الرشيد عندما طلب قدح ماء ليشرب فى وجود ابن السماك : " أكلمك بكلمة قبل أن تشرب هذا الماء ؟ قال : قل ما أحببت . قال : يا أمير المؤمنين : لو منعت هذه الشربة إلا بالدنيا وما فيها أكنت تفتديها بالدنيا وما فيها حتى تصل إليك ؟ فقال : نعم . قال : فاشرب ريا بارك الله فيك . فلما فرغ من شربه قال له : يا أمير المؤمنين : أرأيت لو منعت إخراج هذه الشربة منك

---

١ - الأندية الأدبية فى العصر العباسى فى العراق د / على محمد هاشم - دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط ١ - ١٩٨٢ م - صـ ٢٨ .

إلا بالدنيا وما فيها أكنت تفتدى ذلك بالدنيا وما فيها ؟ قال : نعم . قال: يا أمير المؤمنين : فما تصنع بشيء شربة ماء خير منه ؟ قال : فبكى هارون واشتد بكاؤه . قال : فقال يحيى بن خالد : يا ابن السماك : آذيت أمير المؤمنين . فقال له : وأنت يا يحيى فلا يغرنك رفاهية العيش ولينه[1]".

فالواقع أن موجة الزهد التى ظهرت آثارها فى الشعر العربى فى العصرين الأموى والعباسى لم تكن نتيجة دافع دينى فحسب ، بل كانت نتيجة دوافع ونزعات أخرى بجانب الدوافع الدينية التى أخذت تحث على وجودها وتدفع إلى ظهورها ؛ فقد كان من نتيجة ظهور النزعات المنحرفة وارتفاع موجاتها وانغماس كثير من الناس فى تيارات الانحراف والشعوبية والزندقة ، بجانب تيار اللهو والمجون فى العصر العباسى أن ظهرت طائفة أخرى أنكروا هذه الحياة المادية المرتبطة بالأرض ارتباطا رخيصا ، فمضوا يقفون فى وجه تياراتها ويقيمون السدود فى وجهها ، فاتجهوا إلى الزهد والتقشف ، وأعرضوا عن الدنيا ومتاعها ، ومضوا يدعون الناس إلى عالم روحانى ويذكرونهم بفناء هذه الحياة التى جرفتهم تياراتها المادية ، وأن الموت يقف على بابها بالمرصاد ، وأن وراءها حياة أخرى باقية يحاسب المرء فيها على ما قدمت يداه فى حياته الدنيا [2] . أى أن الأوضاع

---

١ - تاريخ بغداد - ٥ / ٣٧٢ .
٢ - انظر : الشعر العباسى نحو منهج جديد - د / يوسف خليف - ص ٢٨ .

والظروف الاجتماعية والسياسية فى ذلك العصر و فى العصر السابق عليه – العصر الأموى – كانت مسئولة إلى حد بعيد عن ظهور وقوة موجة الزهد فى هذين العصرين .

وبناء على ما سبق ندرك أن الزهد ظاهرة قديمة فى المجتمع الإسلامى وجدت مع ظهور الإسلام ، وتطورت مع مرور الوقت حتى ذاعت وانتشرت وكثر الشعراء المعبرون عنها فى العصر العباسى .

وينفى الدكتور عزيز فهمى فى حديثه عن الزهد أن يكون الزهد قد نشأ نتيجة قسوة الخلفاء وفظاعتهم فى العصر العباسى . ويرى أن ذلك لو كان سببا لنشأة الزهد لكان الزهد قد وجد فى العصر الأموى الذى امتلأ بكل ألوان القسوة والشدة والبطش من جانب الخلفاء الأمويين وبعض أمرائهم . فالسياسة القاسية – فى نظره – لا تحول الناس إلى الزهد ، ولا تصرفهم إلى الدين . إنما ينشأ الزهد فى نفوس هادئة مطمئنة سكن روعها فأخذت تفكر فى هذا الكون وما يحتوى عليه . فالزهد ينشأ فى نفوس هادئة ليس لها من ظروف الحياة ما يثقلها ويرهقها فتنصرف إلى التفكير فى الدين والموت وما بعده . ويرى الدكتور عزيز فهمى لذلك أن الزهد فى المجتمع العربى أثر من آثار الفرس ؛ فقد عرف تاريخ الفرس القديم بأخبار النحل المتزهدة ، وبالمذاهب الدينية المتعارضة[1].

---

١ – المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصر الأول – تحقيق : محمد البقلى – دار المعارف – ٢٩٤ ، ٢٩٥ بتصرف .

ومع تسليمنا بأثر الفرس فى وجود الزهد فى المجتمع العربى إلا أنه لا يمكن إنكار دور السياسة والحياة السياسية فى ظهور وانتشار موجة الزهد فى هذا المجتمع . فالأحوال السياسية المضطربة تساهم مع غيرها من العيوب الاجتماعية والتيارات الثقافية فى تحول جماعة من أبناء المجتمع الذين تهولهم المصائب والأحداث السياسية الخطيرة إلى الجهة المقابلة ، وتجعلهم يفرون من الدنيا مفسرين الأحوال السيئة فى المجتمع بأنها ليست إلا مظهرا من مظاهر غضب الله على المجتمع ؛ لأن أبناءه تخلوا عن طريق الله فتخلى الله عنهم ، وأن الخلاص لن يكون إلا بالرجوع إلى الله والإمعان فى التوبة والإنابة . حدث هذا فى العصرين الأموى والعباسى معا. وقد عرفنا فيما سبق أن الزهد قد وجد فى العصر الأموى بل وفيما قبل العصر الأموى ، خلافا لما قال به الدكتور عزيز فهمى . وعرفنا أيضا أن الأحداث السياسية وشدة اضطراب المجتمع فى العصر الأموى كان لها تأثير كبير فى ازدياد موجة الزهد فى هذا العصر . وكان للاضطراب السياسى فى العصر العباسى أيضا بجانب الاضطراب الاجتماعى أثره الكبير أيضا فى ازدياد وانتشار هذه الموجة أكثر مما كانت عليه فى العصر الأموى.وهذا شئ طبيعى لأنه من المعروف أن الغلو فى اتجاه من اتجاهات الحياة لابد أن يقابله اتجاه آخر مضاد له . ومن ثم انتشر الزهد فى هذين العصرين ، ووجد جمع كبير من رجال الأدب عملوا جادين لنصرة

الفضيلة وإبعاد الناس عن الرزديلة وصاغوا أفكارهم شعرا ونثرا .

أما عن شعر الزهد فى ديوان البارودى فيمكننا القول بأن البـاوودى – هذا الشاعر السياسى الثائر المعتد بنفسه التياه بها ، والذى ترقـــى فى الحياة السياسية إلى أعلى المناصب ، والذى أكثر فى شعره من الحديث عن الخمر ووصفها وأثرها فى شاربيها – هذا الشاعر رغم ذلك كلـــه قـــال الكثير من شعر الزهد . إذ نجد له فى ديوانه أكثر مـــن ثلاثـــين قصيـــدة ومقطوعة فى هذا الغرض بجانب عشرات الأبيات المبثوثـــة فى قصـــائدة الأخرى يذم فيها الدنيا ، ويتحدث عن زوالها وفنائـــها . وقـــد طـــرق البارودى فى شعره فى الزهد الكثير من المعانى – إن لم يكن كل المعـــانى – التى نجدها عند كبار شعراء الزهد فى الأدب العربى فى عصورهم المختلفة.

ومن هذا ندرك مدى أهمية هذا الغرض ومنزلته بين أغراض شـــعر البارودى . وهذا أيضا ما يجعلنا نخالف الدكتور عمر الدسوقى فى حكمـــه على هذا الغرض بالقلة فى شعر البارودى حين قال عن البارودى : "وعلى كل فما قاله فى الزهد قليل " [1] . فما قاله البارودى فى هـــذا الغـــرض يتساوى مع ما قاله فى غرض من أغراض شعره المهمة وهو غرض الرثـــاء إن لم يكن يفوقه .

---

١ – فى الأدب الحديث – ط ٧ – دار الفكر العربى ١ / ٢٣١ .

كما أخالف الدكتور عمر الدسوقى فى استدلاله على قلـــة هـــذا الشعر عند البارودى بأنه كان أثرا " لنوبات كانت تعتريه فيتشاءم مـــن الدنيا ويتذكر الموت،والموت يذكره بالعمل الصالح والإقلاع عن الغوايـــة والجهل ، ويذكره بمن ماتوا قبله من ملوك وأمراء وأصحـــاب عـــروش وضياع ذهبوا وذهبت دنياهم الحافلة باللذات وعمرت منهم القبـــور ولم يذد عنهم الموت مالهم ولا جاههم " [1] . أو بقوله : " لعل قوله فى الزهـد يرجع إلى تلك الحالات النفسية التى غلبه فيها اليأس على أمره وهو وحيد شريد يعانى غصص الفراق والنفى . وإلا فهذه النفـــس الطمـــوح الـــتى خاطرت وغامرت وتطلعت إلى الملك وتلذذت ونعمت بالحيـــاة كـــانت بعيدة عن الزهد فى الحياة ولعلها لم تزهد إلا مرغمة " . [2]

فهذا الذى ذكره الدكتور هو بمثابة الدوافع التى دفعت البـــارودى إلى القول فى الزهد . وهذا لا ضير فيه ؛ فكل غرض من أغراض شـــعر الشاعر – إن لم تكن كل قصيدة من قصائده – لابد لها من دافع يدفعـــه إلى إنشادها . والزهد فى ذلك مثله مثل بقية أغراض شـــعر البـــارودى .

١ – المرجع السابق ١ / ٢٣١ .

٢ – نفس المرجع ٢٣١/١. وقد ذكر الدكتور عمر الدسوقى هذا الكلام بنصه فى كتابـه : محمود سامى البارودى / ط دار المعارف – سلسلة نوابغ الفكر العربى – ط ٥ – ١٩٩٣م ص ٤٤ .

وليس معنى زهد البارودى أن ينعزل تماما عن الحياة ، ويتجرد من كل منصب وجاه له فيها ؛ فالزهد فى الإسلام لا يعنى تمام الانقطاع عن الدنيا كزهد الرهبانية ، بل هو زهد معتدل . زهد فيه قوة ودعوة إلى العمل والكسب. زهد مستند إلى مثل قول الله - تعالى - ﴿ وابتغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبَك من الدنيا ﴾ [1] .

وهو نصيب ينبغى ألا يصرف المسلم عن الآخرة ونعيمه الخالد .

وهذا النوع من الزهد هو ما نلمسه فى شعر البارودى فى هذا الباب، والذى يعبر فيه عن عدم تكالبه على الدنيا أو تمسكه الشديد بأمورها ومتاعها ، وإنما يكتفى من مغانمها بالقليل الذى يضمن له العيش الكريم كإنسان مسلم لا ينبغى أن يكون عالة على غيره ، وفى نفس الوقت لا تكون الدنيا وحدها شغله وهمه .

كما أن فى ديوان البارودى شعرا كثيرا فى باب الزهد يرجع تاريخ نظمه له إلى ما قبل فترة نفيه ، وما عاشه فيها من وحدة وفراق ويأس . والمهم فى هذا الشأن هو أن يكون البارودى صادقا فى شعره فى الزهد . وهذا ما سنتوقف معه ضمن ما نتناوله فى الفصل التالى إن شاء الله .

---

١ - من الآية رقم ٧٧ من سورة القصص .

الفصل الثاني

أفكار ومعاني شعر الزهد عند البارودي

تناول البارودي في شعر الزهد العديد من الأفكار والمعـــاني الـــتي تناولها قبله شعراء الزهد في العصور السابقة. وكانت له طريقته الخاصة في تناول هذه الأفكار والمعاني؛ حيث جاءت أشـــعاره ترجمـــة لأحاسيســـه ومشاعره ولما مر بنفسه من أحداث، ومعبرة عن نظراته تجاه تلك الأفكـار والمعاني.

وأحب أن أنبه هنا إلى أن المعاني والأفكار التي تناولها البـــارودي في شعر الزهد إنما هي معان متقاربة ومتلاحمة إلى حد كبير، ولا يكاد يفصـــل بينها سوى خيوط دقيقة، لأنها في النهاية تؤدي إلى نتيجة واحـــدة وهـــي نفور الزاهد عن الدنيا، وإقباله على الله ـ سبحانه وتعالى. وطمعه فيما أعـده لعباده المخلصين في الآخرة.

ويمكن إجمال أفكار شعر الزهد عند البارودي في أربع أفكار رئيسية يندرج تحت كل منها العديد من المعاني التي توضحها وتجلي معالمها في شعر الشاعر. وتتضح هذه الأفكار وما يتصل بها من معان فيما يلي:

أ- تنزيه الله وتقديسه وتعداد صفاته:

فقد عبر البارودي في شعر الزهد عن علاقته بالله -سبحانه وتعالى- وعن تنزيهه وتقديسه ووصفه - تعالى - بصفات الكمال.

- فقد عبر في بعض شعره الزهدي عن شكره لله - سبحانه وتعالى - على آلائه. وعن حمده - عز وجل - على نعمائه. فهو - سبحانه - الضار والنافع، وليس لغيره قدرة مع قدرته، وليس هناك مشيئة غير مشيئته، وأنه لا يلحق من تمسك به ضر إلا إذا قدره الله عليه. كما أنه ليس لمبتعد عنه - سبحانه - قوة ولا ناصر. يقول البارودي في ذلك:(١)

لك الحمدُ إن الخيرَ منك وإنني ... لصنعكَ يا ربَّ السماواتِ شاكرُ
فأنتَ الذي أوليتَني كلَّ نعمةٍ ... وهذبتَني حتى اصطفتني العشائرُ
فقرِّب لي الخيرَ الذي أنا راغبٌ ... وباعدني الشرَّ الذي أنا حاذرُ
فليس لمن تقصيه في الناسِ نافعٌ ... وليس لمن تدنيه في الناسِ ضائرُ
ولا لامرئٍ ألهمته الرشدَ خاذلٌ ... ولا لامرئٍ أوردته الغيَّ ناصرُ

- وتحدث البارودي عن تنزيه الله - سبحانه - وتقديسه عما يصفه به الملحدون من اليهود والنصارى ومن تبعهم من الفلاسفة الملحدين. ويبطل أقوالهم في جنب الله، ويرى أنها أضاليل وبهتان وأساطير ملفقة

١ - ديوان البارودي - شرح وتعليق: علي عبد المقصود عبد الرحيم - ص ٢٦٤.

مغلفة بأشكال من الحكمة الواهية غير الصائبة والتي حاولوا من خلالهـــا إخفاء تخبطهم وبعدهم عن الصواب . يقول البارودي:(١)

تبارك الله عما قيـــل وابتدعــت في ذاته مـــن أضـــاليل وبهتـــان
قـــد لفقوهـــا أســـاطيرًا محـــبرّة بحكمـــة ذات أشـــكال وألـــوان
كأنهم قد أصابوا طرفـــة عجبـــا أو جاءهم نبـــأ صـــدق ببرهـــان
ولو تكشف هذا الأمر لارتدعـــت معاشر خلطـــوا كفـــرًا بإيمـــان

– وفي موضع آخر يحدثنا البارودي عن تعلقه بالله – سبحانه وتعالى – والعودة إليه والاعتراف له بالقدرة والألوهية. كما يعلن عن حبــه لله – تعالى – وتقديسه وتنزيهه وأن الجاه والسمو والرفعة لا تتحقق للعبـــد إلا بطاعة الله – عز وجل – . يقول البارودي:(٢)

ديـــني الحنيـــف وربي الله وشهادتي أن ليـــس إلا هـــو
لا جـــاه لي إلا بطاعتـــه ولنعم عقبى الطاعـــة الجـــاه
أنا خاشـــع لجـــلال قدرتـــه متقلـــب الجنبـــين أوّاه
فأضالعي للوجد نـــار غضـــي ومحـــاجري بـــالدمع أمـــواه
زهت القلوب بنور حكمتـــه وتعطـــرت بـــالذكر أفـــواه
أنا أمة وحدي علـــى سَـــرَف في حبـــه والنـــاس أشـــباه
إن تاه غيري بالزمـــان فلـــي قلـــب بذكـــر الله تيـــاه

١ – الديوان ٥٨٦.
٢ – ديوان البارودي ٥٩٣.

وحمد الله – سبحانه وتعالى – وتقديسه وتنزيهه والتعبير عن حبه والتعلق به سبحانه من ألصق المعاني بالزهد؛ فالزاهد يستشعر وجود الله – تعالى – في كل حين بل في كل حركة من حركاته.وهو يعتقد اعتقادا لا شك فيه أن كل نعمة تصيبه في هذه الدنيا إنما هي من الله، و واجبه نحوها شكره – تعالى – عليها وحمده على آلائه. كما يؤمن إيمانا راسخا بأن الله منزه عن كل نقص سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، المتصف بكل عظمة وجلال. وهذا معنى يملأ نفس الزاهد طمأنينة وراحة، بل تفاؤلا وأمنا فلا يخشى شيئا؛ إذ لا يتمنى غير ما يحدث . وهو يعتقد اعتقادا جازما أن كل ما ينزل به إنما هو بقدر فيجدر به أن يستقبله بنفس راضية.

ومن هنا تحدث البارودي في زهده عن هذا الجانب المهم في مثل هذا الفن من خلال ذكره لبعض المعاني التي توضحه. ونراه يعرض لهذا الجانب في مستهل قصائده في بعض الأحيان، وفي خواتيمها في بعض الأحيان الأخرى. وقد يفرد له بعض المقطوعات المستقلة، وجاءت كلها في جو إسلامي خالص.

ب- التوبة والندم :

التوبة والحديث عنها من أهم الأفكار الـــتي يتناولهـــا الزهـــاد في أشعارهم. فهي من أولى المراحل التي يمر بها هؤلاء الشعراء بعد أن يعـودوا إلى صوابهم ويقلعوا عن معاصيهم ومجونهم. وهم في حديثهم عن التوبـــة يصورون ما سلف في ماضيهم من عصيان وآثام ويعترفون بما ارتكبوه مـن ذنب، ويدعون الله تضرعا وخيفة أن يقبل توبتهم وألا يؤاخذهم بذنوبهم.

وقد توقف البارودي في شعره في الزهد مع هذه الفكرة وتحـــدث عنها من خلال بعض المضامين والمعاني.

- فنقرأ في شعر الزهد عند البارودي بعض الأشعار التي عبر فيـــها عن حزنه على ما مضى من عمره وأبدى تحسره على ســـنوات عمـــره السالفة التي أضعفت قواه وأوهنت عوده، وحولته إنسانا حزينا بين أهلــه وجيرانه. يقول في ذلك:[1]

إن الثلاثين والخمسَ التي عَرَضت ... ثَنَتْ قوايَ وفلَّت غربَ أشجاني
وخلَّفتـــني على ما كانَ من طَرَبٍ ... بادي الأسافةِ في قومي وجيراني

- ويعترف البارودي بذنبه ويعلن عن تقصيره في جنب الله ، وعـــن إسرافه على نفسه فيما مضى، وتماديه في الغواية والضلال في فترات مـــن

١ - ديوان البارودي ٥٨٥.

حياته رغم علمه بمصيره، ولكن غرور الأمل كان يسول لـــه الســير في طريق المعاصي حتى تقدمت به السن وانحدرت به أيامه نحو الأفول. يقــول في ذلك:(١)

أنــا يا دهرُ عالمٌ بمصيري فيك لكنني جموحُ العَنانِ
قد تماديتُ في الغواية حتى كبحَ الدهرُ شرَّتي وثناني

– ولكنه بعد أن تقدمت به السن وتجاوز مرحلة الشـــباب الــتزم بعصيان نفسه وابتعد عن الغواية وعن التعلق بالدنيا وزخارفها ورجــع إلى الله – تعالى – وتاب وأناب. يقول البارودي:(٢)

نزعتَ عن الصِّبا وعصيتُ نفسـي ودافعـتُ الغوايـــةَ بالتأسِّـــي
وقلتُ لصبوتي – والعينُ غرقَـــى بأدمعــها – رويــدَك لا تمسِّـــي
فقــد ولَّى الصِّبــا إلا قليـــلا أنازعُ ســـؤره بفضـــول كأســي
ومن يك جاوز العشرين تـــترى وأردفَـــها بأربعـــةٍ وخمـــس
فقــد ســفرتْ لعينيــه الليـــالي وبانَ له الهدى مـــن بعــد لَبْــسَ

– ويذكر البارودي أن العيش الرغد في هذه الحياة ما أطيبه إلا أنــه يفنى وسرعان ما يزول. وقد عاش هو زمنا مفتونا برغد العيش وطيبه حتى أتته النذر تنذره بقرب أفول نجمه وتحول حياته وجهـــة أخـــرى عكـــس

١ – ديوان البارودي ٥٧٥.
٢ – ديوان البارودي ٢٨٥.

الوجهة التي كانت تسير فيها. يقول:(١)

ما أطيبَ العيشَ لـــولا أنـــه فـــاني ... تبلى النفوسُ ولا يبلـــى الجديـــدان
قد كنتَ في غرةٍ حتى إذا انقشـعَتْ ... أبقتْ تبـــاريحَ لا تنفـــك تغشـــاني
وشيبةٍ كلســـانِ الفجـــرِ ناطقـــةٍ ... بما طواه عـــن الإفشـــاءِ كتمـــاني

– ومن الطبيعي أن تكون للبارودي هفواته ومعاصيه. فهو كغـــيره من بني الإنسان كثيرا ما تغرهم الدنيا وتلهيهم الحياة وتشغلهم المنـــاصب فينساقون إليها ويلهثون وراءها. وقد تجرهم إلى طريق الغواية والضـــلال وخاصة في فترات الفتوة والشباب . حتى إذا ما ذكرهم الشيب بما مضـى من عمرهم، وأصابتهم الدنيا ببعض آلامها، نزعوا عن صباهم، ونظـــروا إلى أفعالهم وفيما سيئول إليه أمرهم بعد الموت ؛ فأعلنوا عـــن توبتـــهم، ورجعوا إلى الله يستغفرونه، ويطلبون منه – تعالى – المغفرة والرحمة وقبول التوبة.

ومع اعتراف البارودي بخطئه وتقصيره وإسرافه على نفسه في بعـض شعره نجده يعلن في بعضه الآخر عن عدم يأسه من رحمة الله – تعـــالى – ورضوانه وقبول توبته. فالله ذو منٍّ وغفران، وهو الذي يغفـــر الذنـــوب جميعا، وهو – سبحانه – أهل التقوى وأهل المغفـــرة. وكيـــف لا وهـــو

---

١ – ديوان البارودي ٥٨٤.

الرحيم بعباده؛ فهو الذي خلقهم وأسبغ عليهم نعمه، وسخر لهم ما في الكون؛ فقدر الشمس والقمر بحسبان ، والكواكب والنجوم مسخرات بأمره، وأرسل الرياح تأتي بالغيث برحمته فيحيي به الأرض بعد موتها. فسبحانه وتعالى لا يحيط به وصف مخلوق، له وحده ملك السماوات والأرض، يغفر لمن يشاء بفضله ومنّه، ويعذب من يشاء بعدله وحكمته. يقول البارودي:(١)

يا نفسُ لا تذهبي يأساً بما كسبت ... يداكِ فالله ذو مَنٍّ وغفران
يعفو عن الذنبِ حتى يستوي كرماً ... لديه ذو العمل المبرور والجاني
هو الذي جعل الأفلاكَ دائرةً ... وصوَّر الخلقَ من إنسٍ ومن جانِ
وقدَّر الشمسَ تجري في منازلها ... والنجمُ والقمرُ الساري بحسبان
سبحانه جلَّ عن وصفٍ يحيط به ... وكيف يدركُ وصفَ الدائم الفاني

– ويتوجه البارودي إلى نفسه يحثها على الصبر على ما قد تأتي به الأيام من مكروه عسى الله أن يقبل توبته ويقيله من عثراته ويهديه إلى طريق الهدى والنور. يقول البارودي:(٢)

يا نفسُ لا تجزعي فالخيرُ منتظرٌ ... وصاحبُ الصبر لا تبلى مرائرُهُ
لعلَّ بلجةَ نور يستضاءُ بها ... بعد الظلام الذي عمَّت دياجرُهُ

١ – ديوان البارودي ٥٨٥.
٢ – ديوان البارودي ٢٦٦.

– وفي هذا المقام يتوجه البارودي إلى ربه بالدعاء راجيا منه أن يغفر له ذنوبه، ويستر – بعفوه – زلاته وعصيانه، ولا يكله إلى عمله. لأنــه إذا آخذه بعمله فسوف يكون من الخاسرين المحرومين من جنة الله ونعيمــــها. يقول:(١)

يـــا ربِّ إنـــك ذو مَنٍّ ومغفرةٍ	فاستر بعفوك زلاتي وعصياني
ولا تكِلْني إلى ما كان من عَمَلي	فإنـــــه سببٌ يفضي لحرماني

وهو في رجائه عفو الله ورحمته ، وطمعه في غفران الله ومحو زلاتـــه يتوسل البارودي بالمصطفى ﷺ متمنيا أن يرحمه الله ويغفر له ، ولا يكلـــه إلى نفسه ، ولا يؤاخذه بما قدمت يداه. فقد تولى عمــــره وانقضـــى، ولم يَعُدْله سوى الله – سبحانه وتعالى – وكل أمله أن ينجيه الله مــــن هـــول الموقف يوم القيامة. يقول في مدح النبي ﷺ :(٢)

يا ربِّ بالمصطفي هبْ لي وإن عظُمَت	جرائمي رحمةً تغــني عــن الحِجَـــج
ولا تكِلْني إلى نفسي فـــإنَّ يـــدي	مغلولـــةٌ وصبـــاحي غـــيرُ منبلـــج
مالي سواك وأنـــتَ المســـتعان إذا	ضاقَ الزحامُ غداةَ الموقفِ الحـــرِج
لم يبـــق لي أمـــلٌ إلا إليـــك فـــلا	تقطع رجائي فقد أشفقتُ من حَرَجي

وهكذا أولى البارودي هذا الجانب الإيماني حظا لا بأس بـــــه مـــن

١ – ديوان البارودي ٥٨٦.
٢ – ديوان البارودي ٩٠.

اهتمامه وعنايته، وعبر بأكثر من معنى عن ندمه عن ما فات من عصيان، وعن توبته من كل ما أسلف من آثام، وعن رغبته في الاعتصام بحبل الله وبمعالم الطريق الموصلة إلى رحمته وعفوه ومغفرته سبحانه وتعالى.

جـ - فكرة المصير (أو الحياة والموت) :

والفكرة الثالثة من الأفكار التي تناولها البارودي في شعره الزهدي هي فكرة مصير الإنسان في هذه الحياة ومصيره بعد الموت. وهي الفكرة الأساسية في شعر الزهد عنده؛ فقد ترددت في شعره بصورة واسعة. ويظهر من شعر البارودي حولها انشغاله بها انشغالا كبيرا. ونراه يعبر عنها في صور شتى وأساليب متعددة. فكان يطوف حولها حينا، ويتغلغل في أعماقها حينا آخر. وعرضها علينا في نماذج مختلفة من شعره، متأثرا في ذلك بكبار شعراء الزهد في الأدب العربي كأبي العتاهية وأبي العلاء المعري. وإن كان تناول البارودي لهذه الفكرة تناولا دينيا خالصا يختفي منه الشك والحيرة، ويتضح فيه الإيمان واليقين، وليس تناولا فلسفيا كما كان عند أبي العلاء المعري مثلا.

وكان البارودي في تناوله لهذه الفكرة ينبه أولئك الغافلين الذين اطمأنوا إلى حياتهم الدنيا، وغفلوا عن المصير المحتوم الذي ينتظرهم. ولذلك تكثر في شعره عن هذه الفكرة تلك الصور التي تشيع جوا من

الحزن والتشاؤم والانقباض في نفوس الناس. وكأنه كان يرى في إثارة هذه المشاعر وسيلةَ فعالة لتنبيه هؤلاء الغافلين.

- تحدث البارودي كثيرا عن فناء هذه الحياة وسرعة انتهاء أيامـها، وأنها إذا أقبلت على الإنسان فسرعان ما يؤذن إقبالها بالانصراف، فما هي إلا دار متاع وغرور، وليست دار إقامة أو استقرار، وإنما هي دار فانيــة يفنى كل ما فيها، ولا يبقى إلا وجه الله - سبحانه وتعالى - لأن المــوت متربص بكل إنسان. ومع علم الإنسان بذلك إلا أن ضــروب الأمــاني تشغله عن آخرته حتى يفجؤه الموت. يقول البارودي:(١)

أيُّ شيءٍ يبقى على الحدثانِ　　والـمنايا خصيمةُ الحيوان؟
قد بلونا كيدَ الزمانِ ولكن　　شغلتنا عنه ضروبُ الأماني

- ومرة أخرى يبين البارودي حقيقة هذه الحياة وحقيقــة العيــش فيها، وما هو إلا خطرات عارضة سرعان ما تزول. وما نحن في هذه الحياة إلا كمثل من سبقنا، وسوف نرحل عنها كما رحلوا. يقول في ذلك:(٢)

فما العيشُ إلا خطرةٌ عَرَضيَّــةٌ　　تــزولُ كمـا زال الحثيثُ من النَّسْم
وهل نحن إلا مثلُ من كان قبلنا　　فسل عن"جديس"أين ولَّت وعن"طَسْم"

---

١ - ديوان البارودي ٥٧٣.
٢ - ديوان البارودي ٥٠٦.

- ويقول مفصحا عن حقيقة هذه الحياة وما فيها:[١]

إنمــا هــذه الحيــاةُ غــــرورٌ   تنقضــي بالشــقاءِ والحرمـــانِ
ليس فيها سوى خيالاتِ وهـــمٍ   تمتريــها قرائـــحُ الأذهـــانِ
خطراتٌ قد ضمنُوهـــا كلامـــاً   فلســفيا لم يقـــترَن بمعـــاني

- وتحدث البارودي كثيرا في شعره الزهدي عن ذم الحرص علــى الدنيا ، وطالب بالكف عن التكالب عليها أو اللجوء إلى الحيل الممقوتـــة من أجل الحصول على قدر أكبر من متاعها. وذكر البارودي في هذا المقام أن المال قد يكون سببا في شقاء الإنسان وهلاكه في الدنيا وخســـرانه في الآخرة. فكم من عاجز أتاه رزقه واسعا، وكم من قادر واسع الحيل ضاق عليه رزقه رغم حيله وفطنته. يقول البارودي:[٢]

لكـــلِّ حـــيٍّ نذيرٌ من طبيعته   يوحِـــي إليـــه بما تعيا به النذرُ
يرجو ويخشى أمورًا لو تدبرها   لزال من قلبه التـــأميلُ والحذرُ
تراه يسعى لجمعِ المالِ معتقداً   أن الفتى من لديه السامُ والشذَرُ

ويقول:[٣]

ألا إنـــما الأيامُ تجري بحكمها   فيُحرَم ذو كدٍّ ويرزَقُ وادعُ

---

١ - ديوان البارودي ٥٧٤.
٢ - ديوان البارودي ٢٥٦.
٣ - ديوان البارودي٣١٤.

ويقول موجها لومه إلى هؤلاء الذين يلجأون إلى الحيل المقوتة من أجل الحصول على مغنم أكبر من متاع الحياة، ويفنون جدة عمرهم بين الرجاء في تحصيل ما ليس عندهم حينا، وبين اليأس من تحصيله حينا آخر، وهم يعلمون أن الغنى والفقر قدرهما الله على خلقه، وأن الإنسان لن يحصل على أكثر مما قدره الله له من الرزق. ويتساءل البارودي موبخا هذا الصنف من الناس: لم كل هذا والحياة لا تتعدى عن كونها لبس ما يستر الجسد، وأكلة يسد بها الإنسان جوعه، وشربة ماء يحتسيها الظمآن. وما فوق ذلك لن يستفيد به صاحبه وسوف يتركه لمن بعده. يقول البارودي:(١)

إن الفلاةَ لها رجالٌ غيرُنا ... يبغون نيلَ اليسر بالإفلاسِ

إن الغنى والفقرَ في هذا الورى ... لمقدَّرٌ واللهُ ذو قسطاسِ

فعلامَ يُبلي المرءُ جدةَ عمره ... متقلباً بين الرجا واليأس؟

أو ليس أن العيشَ لبسُ عباءةٍ ... وسدادُ سغبةٍ ونغبةُ حاسي؟(٢)

- ويحدثنا البارودي في شعره الزهدي أكثر من مرة عن كرهه للحياة وضيقه بها وبملذاتها الفانية والتي لا تدوم كثيرا. فما أقرب نهاية الدنيا من بدايتها. يقول:(٣)

---

١ - الديوان ٣٨١.

٢ - النغبة: الجرعة. وجمعها نغب على وزن رطب.

٣ - ديوان البارودي ١٧٧.

فسُحقًا لـــدارٍ لا يـــدومُ نعيمُـــها وتبًّا لخلٍّ لا يـــدومُ علـــى العـــهدِ
وكيف يلذ المرءُ بـــالعيش بعدمـــا رأى أن سمَّ الموت في ذلك الشـــهدِ
إذا لم يكن بـــين الحيـــاةِ وضدِّهـــا سوى مهلةٍ فـــاللحدُ أشـــبهُ بالمـــهدِ

ويكفي من أسباب كرهه للدنيا أنها لم تدع له شيئا سوى روحه التي تتردد في جسمه. ويرى أنه ليس له من اسمه نصيب. فالنـــاس يدعونـــه (محمودا) وليته كما زعموا. إذاً لكان له شـــأن آخـــر. يقـــول في هـــذا المعنى:(١)

برتنـــي تباريحُ الحياةِ فلم تدع لديَّ ســـوى روحٍ تردد في جسمي
يقولون (محمودٌ) ويـــا ليت أنني كما زعموا أو ليتَ لي طائعاً كاسمي

– ومن منطلق كره البارودي للدنيا وذمه الحرص عليـــها وعلـــى متاعها نراه يعيب على العليل حرصه على التداوي واجتهاده في البرء مـــن علته. وما علم أن الطبيب ليس بسالم، وأن النفس لا تزال في تنغيص دائم ما دامت على قيد الحياة. وكأن الحياة قد تعاهدت على نزع اللذة عـــن الإنسان طوال معيشته فيها. يقول البارودي:(٢)

يظن عليلُ القوم في الطـــبِّ بـــرأَه ولم يدر أن الطـــبَّ ليـــسَ بســـالمِ
فطِرْ للسُّها أو فاتخذ لـــك ســـلَّماً لـــترقى إلى أبراجـــه بالســـلالمِ

١ – ديوان البارودي ٥٠٧.
٢ – ديوان البارودي ٥٠٨.

وكيف تنالُ النفسُ في الدهرِ عيشةً   تلذ بهـــا والدهـــرُ غـــيرُ مســـالمِ؟

ويلوم البارودي الإنسان الذي يتمنى أن تطول حياته. ولا يعلم أنـه كلما طالت حياته كلما طال بؤسه وشقاؤه، وتوالت عليه مصائب الدهـر وأحزانه. وأما الهناءة والسعادة التي يبحث الإنسان عنها فهي لا تتحقـق إلا في لحظات متفرقة من حياة الإنسان. يقول البارودي:(١)

لَعَمْرُ أبي إن الحياةَ وإن صَفَتْ   مسافةُ يوم فهـــو صفوٌ مرنَقُ

ففيـــم يودُّ المرءُ طولَ حياته   وفي طولـــها شملُ الهناء مفرَقُ

وما الدهرُ إلا مســتعدٌّ لوثبةٍ   فحذرك منه فهو غضبانُ مطرقُ

- ويتحدث عن اغترار بعض الناس بهذه الدنيا على الرغـــم مـــن سرعة فنائها. فتراهم لاهين عابثين تمر عليهم الشهور والأعوام وهـــم في غيهم سادرون. ولو تأملوا مظاهر الكون من حولهم لعلموا أن الفناء قـد كتبه الله على كل ما في الحياة من كائنات، وأن الموت هو النهاية الحتميـة لكل نفس. يقول البارودي:(٢)

لا تحســبنَّ العيــشَ دامَ لمـــترفٍ   هيهاتَ ليس علـــى الزمـــانِ دوامُ

تـــأتي الشـــهورُ وتنتـــهي أيامُـــها   لمع الســـراب وتنقضـــي الأعـــوامُ

والناس فيمـــا بـــين ذلـــك واردٌ   أو صـــادرٌ تجـــري بـــه الأيـــامُ

١ - ديوان البارودي ٣٨٧.

٢ - ديوان البارودي ٤٧٢.

لا طائرٌ ينجو ولا ذو مخلبٍ   يبقى وعاقبةُ النفوسِ حِمَامُ

- ومن منطلق هذا المفهوم يتنازل البارودي عن ألقابه، ويرى أنها من باب متاع الحياة الفاني، فوجودها لا يرفع حرا, وعدمها وتجرده منها لا يقلل من شأنه. ومن هنا يطلب ممن يخاطبه أن يدعوه باسمه مجردا من الألقاب. لأن هذه الدنيا كلها إلى فناء لا يجوز أن نتباهى بشيء ملكناه فيها. ومن تأمل هذه الدنيا وعرف حقيقتها رضي بالقليل من متاعها.

يقول البارودي:(١)

منحتك ألقابَ العلا فادعُني باسمي   فلا تخفض الألقابُ حراً ولا تُسْمي
إذا كان عقبانُ الحديدِ إلى بِلًى   فلا فرق بين الحديثِ ولا الرسم
تأمل إلى الدنيا بعينٍ بصيرةٍ   لعلك ترضَى بالقليل من القَسْمِ

"وقد كثر الحديث عن الرزق في أقوال هؤلاء الزهاد لأنه مدار الصراع بين البشر فإن علموا أنه مقدر كفوا عن تنازعهم وصراعهم:(٢)"ومن هنا عاب البارودي على الحريص على الدنيا حرصه ومحاولاته التي يبذلها طمعا في أن ينال من الدنيا أكثر مما هو مقدر له. فمع مدحه للسعي والجد المصحوبين بالعزة والشرف نراه يذم وينهى عن التعلق بالدنيا والتكالب عليها بنهم وذلة.

---

١ - ديوان البارودي ٤٧٢.

٢ - شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة - د/ علي نجيب عطوى - ص ٩٣.

– ويتحدث البارودي عن القناعة في الحياة. وهي في نظره تـــؤدي إلى رفعة الإنسان وعلو شأنه بين الناس؛ لأن القنوع لا يحقد على أحـــد، ولا ينظر إلى ما في أيدي الناس، ولا يفكر كثيرا في أمور الدنيا. أما الطمع فيؤدي بصاحبه إلى المذلة والقلق والحيرة وضيق الصـــدر، وقـــد يـــؤدي بصاحبه إلى أن يصبح أشد ضنكا وضيقا من الفقير المحتاج وإن أقبلت عليه الدنيا بحذافيرها. بخلاف من اتصف بالقناعة فإنك تراه يعيش حياة كلـــها استقرار وسعادة وراحة بال. وعلى هذا يدعو البارودي أخاه الإنســـان ألا يغتر بهذه الدنيا، وألا يتمسك بها ولا يطمع في المزيد منها حـــتى وإن رأى منها إقبالا عليه. فالغنى الحقيقي هو غنى النفس لا غنى المال والجاه. ولـــو تأمل الإنسان أمور هذه الحياة لا كتفي منها بأقل من القليل، وما طمـــع في شيء يزيد عن حاجته. يقول البارودي:[1]

تَزَوَّدْ من الدنيـــا بمـــا فيـــه بلغـــةٌ ... فسوف تعاني الجدبَ يا راعيَ الوسمـــي[2]

لَعَمْري لنعمَ المرءُ من بات راضيـــاً ... بما خصه من فيضه ســـابقُ الرســـمِ

فدع هذه الدنيا وإن هي أقبلـــت ... عليك بإيماضِ البشاشـــةِ والبَسْـــمِ

فلو جرَّب الإنسانُ أخلاقَ دهـــره ... لأمسك باليأسِ المريحِ عن القَسْـــمِ

ولكن ليس معنى دعوة البارودي إلى القناعة أنه يدعو إلى التقـــاعس

- ١ديوان البارودي ٥٠٦.

٢ – الوسمي: أول مطر الربيع.

عن طلب الرزق وذم السعي؛ فتلك حياة الكسالى الخاملين المتواكلين. ولكن المسلم مطالب بأن يعمل لدنياه ولآخرته معا مع عدم الميل إلى الدنيا أو التحايل الممقوت في كسب المزيد من متاعها . يقول البارودي في الحث عل السعي:(١)

تغرَّب إذا أتربتَ والتمس الغِنى ... فما العزُّ إلا من وراء التعسُّفِ
فقد يعدم الإنسانُ من عقر داره ... مناه ويلقى حظَّه في التطرفِ
فكلُّ مكانٍ يضمن الرزقَ للفتى ... إذا لم يكن فيه عديمَ التصرفِ

– ويذم البارودي الزمان الذي تحول ظله عنه وترك في قلبه لوعة متقدة، ويتهم الدهر بأنه خداع غرور يغر من يطمع فيه بالمزيد ويخدعه. فالجاهل هو من اطمأن إلى الحياة وأمن صروف الدهر، وإذا ما أصيب بمكروه فيها هلع وجزع. يقول البارودي:(٢)

فيالك من زمان عشتُ فيه ... نديمَ السراح والهيف الكعابِ
إذا ذَكَرَتْه نفسي أبصرَتْه ... كأني منه أنظرُ في كتابِ
تحوَّلَ ظلُّه عني وأذكى ... بقلبي لوعةً مثلَ الشبابِ
كذاك الدهرُ ملاَّقٌ خلوبٌ ... يغر أخا الطماعة بالكذابِ

إن تجارب الشاعر في هذه الحياة جعلته يؤمن بأن الحياة زائلة،

---

١ – ديوان البارودي ٣٥٨.
٢ – ديوان البارودي ٥٣.

والإنسان فيها ليس مخلدا بل إن مدة وجوده فيها قصيرة. والدهر دائما يحارب الإنسان ويعانده، وكأنه يعز عليه أن يراه سعيدا في حياته. فأيام الإنسان السعيدة في الحياة قليلة إذا ما قيست بأيامه الحزينة فيها. ويا ليت الإنسان يعي هذه الحقيقة، إذا لأخذ حذره وعمل لما بعد الموت.

– ومن هذا المنطلق كرر البارودي حديثه في شعر الزهد عن هؤلاء الذين يتمنون طول الحياة وامتداد أعمارهم فيها. وهم لا يدرون أنه كلما امتد بهم العمر كلما تكاثرت عليهم الأدواء والأسقام. ويطلب منهم أن يرجعوا بتأملاتهم إلى القرون الماضية: هل خلدت أمة من الأمم السابقة؟ وهل لمسافر إقامة؟ ثم يؤكد هذه الحقيقة بما حدث لمدائن كسرى التي خلت من أهلها، وكانوا أشداء أعزة. وهذه الأهرامات التي شيدها قدماء المصريين لتكون عنوان قوتهم ومظهر عزتهم، ثم بادوا وتركوها شاهدة عليهم. وهكذا الحياة: نقض وإبرام، وحركة وسكون، واتقاد وخمود، وكلام وسكوت. لا شيء يبقى كما هو، ولا شيء يستقر على حال واحدة. يقول البارودي:[1]

فاطمَحْ بطرفِك. هل ترى من أمةٍ   خلدَتْ؟ وهل لابن السبيل مقامُ؟
هذي المدائنُ قد خلت من أهلِها   بعد النعيم وهذه الأهرامُ
لا شيءَ يبقى غيرَ أن خديعةً   في الدهر تنكل دونها الأحلامُ

---

١ – ديوان البارودي ٤٧٣.

ولقد تبينتُ الأمورَ بغيرها وأتى عليَّ النقضُ والإبرامُ
فإذا السكونُ تحرّكٌ وإذا الخمو دُ تلهّبٌ وإذا السكونُ كلامُ
وإذا الحياةُ ولا حياةَ منيّةٌ تحيا بها الأجسادُ وهي رمامُ

- وكثيرا ما يضرب البارودي المثل بالأمم السابقة التي فنيت وبادت. ويدلل بها على فناء كل حي، وعلى زواله وعدم بقائه في هذه الدنيا أكثر من فترة محدودة. وقد ضرب المثل مرة أخرى بالأهرام وبقائها بعد فناء أهلها شاهدة على عظمة بانيها ومعبرة عن فناء هذه الحياة وعدم دوامها على حال. فقال:(١)

أين من كان قبلنا منذ دارتْ كرةُ الأرض وهي ذاتُ دخانِ
أمم أخلدَتْ إلى الدهر حيناً ثم ضاعت في لجة النسيانِ
حصدتها يدُ المنون فصارَتْ خبراً في الوجود بعد عيانِ
فترسَّم معالمَ الأرض واسأل فعسى أن يجيبَك الهرمانِ
بقيت بعد صانعيها فكانت أثراً ناطقاً بغير لسانِ

ومن حديثه عن فناء الأمم السابقة قوله عن "جديس" و"طسم ":(٢)
وهل نحنُ إلا مثلُ من كان قبلنا فسَلْ عن"جديس" أين ولّت وعن "طسْم"
وقوله عن آثار كسرى وقيصر(٣):

---

١ - ديوان البارودي ٥٧٤.
٢ - ديوان البارودي ٥٠٦.
٣ - ديوان البارودي ٢٧٥.

توسَّم فضاءَ الأرض شرقاً ومغرباً　　عساكَ ترى آثارَ كسرى وقيصرِ

ويقول عما حدث لبعض العرب قبل الإسلام ومن كان قبلهم من بعض الأمم، وأن مصير هؤلاء جميعا هو نفس مصير من أتى قبلهم وسيكون مصير من سيأتي بعدهم :[١]

ومـا الأيـامُ إلا صائبـاتٌ　　تمـرُّ بكـلِّ سـابغة وتـُرس
أبادتْ قبلنـا إرَمـاً وعـاداً　　وطارتْ بـين ذبيـانٍ وعبـس
وألوَتْ بالمضلَّل واسـتمالت　　عمادَ الشنفري وهوَتْ بقسِّ
فلا (جشميدُ) دافع إذ أتتـه　　يحادثها ولا ربُّ الدرفـس[٢]
على هذا يسيرُ النـاس طـراً　　ويبقى الله خالقُ كـلِّ نفـس

ويتحدث البارودي عن هؤلاء الناس أنفسهم مرة أخرى، ويضم إليهم غيرهم ويضرب بهم المثل في الفناء وعدم بقاء الدنيا على حال فيقول[٣]

أيـن الأُلَى شـقُّوا البحـو　　رَ وشـيَّدُوا ذاتَ العمـاد
ملكُـوا التـهائمَ والنجـا　　ئـدَ والحواضـرَ والبـوادي
بـل أيـن أصحـابُ الوفـو　　د وأيـن أربـابُ الجـلاد؟

---

١ - ديوان البارودي ٣٨٦.

٢ - جشميد: لقب ملك عظيم من ملوك الفرس الأقدمين. الدرفس: العلم الفارسي الكبير.

٣ - ديوان البارودي ١٨٨.

بـــل أيـــن صنـــاعُ القريـــــــ ـــض الجزلِ والكلم الفـــــرادِ؟
كالشــــاعرِ الضليـــــــلِ أو قُسِّ بـــــن ســاعدةَ الإيـــادي
لعـــب الزمـــــانُ بجمعِــــهِمْ ورمـــى بهـــم في كـــــلِّ وادي
فكـــــأنهم لم يلبثُـــــــوا إلا بياضـــــاً في ســـــوادِ

ولعل إكثار البارودي من الحديث في هذا المعنى يرجع إلى أنـــه رأى أن الحديث عن فناء الأمم السابقة يعد من أقوى الأدلة الحسية العمليـــة التي تثبت للقارئ فناء هذه الحياة، وعدم بقائها أو دوامها لأحد. وأنهـا لا تبقى على شيء. فكما يفنى الأفراد تفنى الأمم والشعوب.

وموقف الزاهد من الدنيا وتعبيره عن ضيقه بها من أهم المعـاني ذات الصلة بفن الزهد؛ لأن الزهد – كما يفهم من تعريفه الاصطلاحي– هـــو تعبير الزاهد عن عدم حبه للدنيا وعدم إقباله عليها وزهـــده في متاعـــها. ولذا كان من الطبيعي أن يتناول البارودي هذا المعنى ويتحدث عنـــه في شعره الزهدي.

– كما صور لنا البارودي في شعره في باب الزهد انطباعاته النفسية عن الموت وقضائه على كل شيء في الحياة ضاربا المثل بقضائه على الملوك الأشداء الذين عاشوا أعزة في هذه الحياة ولكنهم ســـرعان مـــا بـــادوا

وهلكوا. ومن ذلك قوله[١]

كـلُّ حـــيٍّ ســـيموتُ   ليـس في الدنيــا ثبـــوتُ
حركـاتٌ ســوف تفـــنى   ثم يتلوهـــا خفـــوتُ
أيـــنَ أمـــلاكٌ لهـــم في   كـــل أفـــقٍ ملكـــوتُ
زالــت التيجـانُ عنـــهم   وخلَـت منـــهم بيـــوتُ
إنمـا الدنيـــا خيـــالٌ   بــاطلٌ ســـوف يفـــوتُ
ليـس للإنســـان فيـــها   غـيرَ تقـــوى الله قـــوتُ

- وقال مبينا حقيقة هذا الزمان ومصورا قصر فترة مكث الإنسـان فيه :[٢]

وما الدهرُ إلا ضوءُ شمسٍ عـَــلا   وكوكبٌ غابَ ونبـــتٌ بقـــل
وراحـــلٌ أعقبـــه نـــازلٌ   ما قيل قد خيَّمَ حـــتى اسـتقَل
عمايَـــةٌ يخبـــط فيـــها النُّـــهي   عجزًا ولا تبصر فيـــها المُقَـــل

ويقول في موضع آخر مبينا المعنى نفسه[٣]

لعمرُك ما الإنسانُ إلا ابنُ يومه   وما العيشُ إلا لبثةٌ وزيالُ

وقد أكد البارودي هذا المعنى هنا وأبان عن قصر عمر الإنسان في هـــذه

---

١ - ديوان البارودي ٨٤.
٢- ديوان البارودي ٤٤٢.
٣ - ديوان البارودي ٤٤٥.

الحياة عن طريق القسم أولا، ثم عن طريق القصر الذي قصر فيه عمر الإنسان ووجوده في هذه الحياة على يومه الذي يعيشه، ثم عن طريق قصر عيش الإنسان على مجرد توقفه اليسير الذي يعقبه الفراق والرحيل.

- ويذكر في أبيات أخرى أن في نفس الإنسان وطبيعته ما ينذره ويخوفه من سوء العاقبة إذا لم يقدم لنفسه عملا صالحا ينجيه من أهوال يوم القيامة. فالإنسان لو تدبر أمور حياته وتأمل فيها لاستفاد منها. يقول البارودي:[1]

لكلِّ حيٍّ نذيرٌ من طبيعته ... يوحي إليه بما تعيا به النذرُ
يرجو ويخشى أموراً لو تدبرها ... لزالَ من قلبه التأميلُ والحذَرُ

ولذا فعلى الإنسان أن يأخذ حذره، وأن يكون على استعداد لتقبل تقلبات الزمان وأن يكثر من عمل الخير ويبتعد عن الشر:[2]

فبادر النقلةَ واعمَلْ لها ... ما شئتَ فالدهر سريعُ النقَلْ
واصمت عن الشرِّ إذا لم تطِق ... دفعاً وإن صادفتَ خيرًا فقُلْ
وسر إذا ما عرضَتْ فرصَةٌ ... فالبدرُ قد ينمو إذا ما انتقَلْ

- ويرى البارودي أن الموت محيط بكل إنسان، ولا مفر منه لأنه مكتوب على كل إنسان بل وعلى كل كائن في هذه الدنيا. يقول:[3]

---

١ - ديوان البارودي ٢٥٦.
٢ - ديوان البارودي ٤٤٢.
٣ - ديوان البارودي ٥٨٤.

أنى يفرُّ المرءُ من شَرَكِ الرَّدَى   والموتُ مقدورٌ على الحيوانِ

ويقول مبينا حقيقة هذه الحياة الدنيا، وأنها – كما يقول الله تعالى عنها – " وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور[1]". فهي غرور خداعة لا عصمة لأحد فيها من الموت الذي لا يفرق بين كبير وصغير، ولا بين حقير وجليل:[2]

إنما الدنيا غرورٌ   لم تدَعْ طفلاً وكهلا
كم حكيمٍ ضلَّ فيها   فاكتسَى بالعلمِ جهلا

ويقول مبينا حال الدهر وحقيقته وسرعة تقلبه:[3]

وما الدهرُ إلا دفترٌ في خلالِهِ   تصاويرُ لم يُعْهَد لهنَّ مثالُ
ففي صفحةٍ منه زمانٌ قد انقضى   وفي وجهِ أخرى دولةٌ ورجالُ

– كما يذكر البارودي أن النتيجة الطبيعية لحياة الإنسان أن يحل به الموت بعد وقت محدد يعيشه الإنسان فوق الأرض ينتقل بعده إلى الدار الآخرة. وعلى الإنسان أن يأخذ العظة والعبرة ممن سبقه إلى الموت، وألا يلهيه عيشه في الدنيا عن العمل للآخرة. يقول البارودي:[4]

كلُّ امرئٍ سائرٌ لمنزلةٍ   ليس له عن فنائها هَرَبُ
لا البازُ ينجو من الحِمَام ولا   يخلص منه الحَمَامُ والخربُ[5]

١ – من الآية ١٨٥ من سورة آل عمران.
٢ – ديوان البارودي ٤٥٦.
٣ – ديوان البارودي ٤٦٦.
٤ – ديوان البارودي ٧٧.
٥ – الباز: نوع من الصقور. الخرب: ذكر الحبارى.

مسلّط في الورى فلا عَجَمٌ | يبقى على فتكه ولا عَرَبُ
فكم قصور خلت وكم أمم | بادت فغصّت بجمعها الترب
فمنزلٌ عامرٌ بقاطنه | ومنزلٌ بعد أهله خَرِبُ
يغدو الفتى لاهياً بعيشته | وليس يدري ما الصّابُ والضَّرَبُ

وهكذا عبر البارودي عن انطباعاته النفسية تجاه الموت والحياة والزمان، وأبان عن مصير الإنسان بعد هذه الدنيا، وجاء بصور متعددة عن الدهر والناس وموقفهم من الحياة حتى يؤثر في نفوس قارئي شعره، ويبين لهم حقيقة هذه الحياة وحقيقة العيش فيها.

د -الوعظ والإرشاد والتوجيه:

وباب الوعظ والإرشاد من الأبواب التي تحدث فيها البارودي كثيرا في شعر الزهد. وذلك لأنه من ألصق الأفكار وأشدها اتصالا بهذا الباب. فالزاهد لا يعيش لنفسه وحدها، ولا يزهد لينجو بنفسه فقط. وإنما هو إنسان مسلم يعمل جاهدا لإنقاذ غيره والوصول به إلى حال النقاء والتسامي في الحياة ، وإلى تحقيق رضا الله عنه والابتعاد به عن العذاب في الآخرة. وقد أدرك البارودي قيمة هذه الفكرة وأهمية وجودها في شعره فأكثر من أشعار الوعظ والإرشاد التي يتوجه فيها إلى كل ضال متعلق بالدنيا غافل عن الآخرة.

والعظات الدينية في شعر البارودي تدور كلها في جو ديني إسلامي وتستمد معانيها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ثم من آرائه هو في الموت والحياة. وهو فى هذا كغيره من شعراء الزهد قبله كانوا يضمنون شعرهم فى الزهد الكثير من العظات والتوجيهات .. "وهي تهدف كلها إلى غرض واحد وهو رفض الدنيا والعمل للآخرة. وهو يقف فيها موقف الواعظ الديني يخاطب الناس عنيفا بهم حينا ومترفقا بهم حينا آخر. يعدهم ويتوعدهم، ويتقرب إليهم، ويتباعد عنهم، ويرغبهم ويرهبهم ولكنه دائما يتمنى لهم السعادة في الآخرة، والعمل الصالح من أجلها في الدنيا."[1]

– ومن معانيه في ذلك ما تحدث فيه عن حثه لغيره على التوبة والتعجيل بها، والإنابة إلى الله وطلب المغفرة. على أن يكون ذلك في اليوم قبل الغد. فالغد غير مضمون وجوده؛ ولذا فعلى الإنسان أن يبادر بعمل الصالحات قبل أن يرد حياض الموت. لأنه لا يعدو عن كونه ضيفا في هذه الحياة وسيرحل عنها في يوم ما. والدار الآخرة هي دار البقاء والخلود. وسيسأل كل إنسان عما قدمت يداه . يقول البارودي في ذلك :[2]

فاضرَعْ إلى اللهِ واستوهبه مغفرةً تمحو الذنوبَ فجاني الذنب يعتذرُ

---

١ – في الشعر العباسي نحو منهج جديد – د/ يوسف خليف ٧٩.

٢ – ديوان البارودي ٢٥٧ .

واعجَلْ ولا تنتظر توبًا غداةَ غــدٍ فليس في كل حــين تُقْبَــلُ العــذُرُ
هيهات لا يستوي الشخصان في عَمَلٍ هذا صحيحٌ وهذا فاســدٌ قَــذِرُ (١)

ويطلب من الإنسان ألا تلهيه دنياه عن آخرته ، وإن حدث هــذا لإنسان كان من الخاسرين، يقول : (٢)

ألهتكــم الدنيا عن الآخــرَةْ وهي مــن الجهل بكم ساخِرَة
وغرَّكم منها – وأنتم بكم جوعٌ إليهــا – قِدرُها الباخِرَةْ

– ويحث البارودي المسلم على فعل الخير وتجنب الشــر ، وتــرك الحرص على الدنيا ، والإقبال على الآخرة حتى تطمئن نفسه ويعيــش في راحة وسكينة . يقول البارودي : (٣)

وليكــن ســعيُك مجــدًا كلُّــه إنَّ مرعى الشرِّ مكــروه أحَــصّ (٤)
واترك الحــرصَ تعــش في راحــةٍ قلمــا نــال منــاه مــن حَــرَصْ
قد يضُــرُّ الشــيءَ ترجــو نفعَــه رب ظمــآن بصفــو المــاء غَــصّ

– ويوجه البارودي لومه إلى المسرف المدل بنفسه ويعيــب عليــه فخره واعتداده الزائد بنفسه ، وافتخاره بالآباء والأجداد . ويبين له أنــه من الأولى أن يجعل الإنسان أفعاله – فقط – موطنــا لفخــره ومناطــا

---

١ – قذر : فاسد خبيث .
٢ –ديوان البارودي ٢٦٣ .
٣ – ديوان البارودي ٢٩٤ .
٤ – حص : نكد مشئوم .

لاعتداده . يقول البارودي : [١]

يا أيها السَّـــرِفُ المــدلُّ بنفســه كســـفينةٍ في لج بحـــــر مـــــاخِرة
أتظـــنَّ أن الفخـــرَ ثـــوبٌ معلَـــمٌ تزهـــو بلبســـته وقـــدرٌ بـــــاخِرة
هيـــهاتَ ظنـــك فـــالعُلا أمنيـــة مـــن دون مبلغـــها بحـــارٌ زاخـــرة
أتلفـــتَ دنيـــاكَ الـــتي أوتيتـــَـها ولسوف تهلك حســـرةً في الآخـــرة
حتَّام تفخر بـــــالجدودِ ولم تـــَـنَلْ ما أحرزت تلك الجـــدودُ الفـــاخرة
فاجعَلْ لنفسك من فعالك شـــاهداً يغنيك عن ذكرِ العظـــام النـــاخِرَةْ

– ويوبخ البارودي هؤلاء المسرفين على أنفسهم ، الســائرين وراء شهواتهم السادرين في طريق الغي والضــلال الذيــن لا يرعـــوون ، ولا تنفعهم النذر ، ولا يتعظون بغيرهم ، فيقول مخاطبا نفســـه ضاربــا بها المثل:[٢]

متى أنتَ عن أحموقة الغـــيِّ نـــازعٌ وفي الشيب للنفـــس الأبيـَّـةِ وازعُ
ألا إن في تسع وعشـــرين حجـَـةً لكل أخي لهـــو عـــن اللـــهو رادعُ
فحتَّامَ تصيبـــك الغـــواني بدلهـــا وتهفو بليتيـــك الحَمَـــامُ الســـواجعُ
أما لكَ في الماضين قبلـــك زاجـــرٌ يكفك عن هذا ؟ بلى أنـــت طـــامعُ

– ويحذر البارودي أولئك اللاهين العابثين المعرضين عن اتباع طريق

---

١ – ديوان البارودي ٢٦٢.
٢ – ديوان البارودي ٣١٣.

الهدى والسادرين في طريق الغي والضلال ، يوجه إليهم لومه وزجره ويدعوهم إلى التوبة قبل فوات وقتها فيندم الإنسان حينذاك ولا ينفعه الندم. يقول : (١)

يا وارداً لا يُمَلُّ مَوْرِدُه   حذارِ من أن يصيبك الشَّرَبُ
تصبو إلى اللهو غير مكترثٍ   واللهوُ فيه البوارُ والتَّرَبُ
وتترك البِرَّ غيرَ محتسِبٍ   أجراً وبالبِرِّ تُفْتَحُ الأربُ
فتُبْ إلى الله قبلَ مندمةٍ   تكثُر فيها الهمومُ والكُرَبُ
واعتد على الخير فالموفَّق من   هذَّبَه الاعتيادُ والدَّرَبُ
وجُدْ بما قد حَوَتْ يداك فما   ينفعُ ثَمَّ اللجينُ والغَرَبُ

- ومرة أخرى يحذر البارودي من الدنيا ومن الاغترار بها فإنها كثيرا ما تعقب المسرة بالحزن ، والنعيم بالإعدام ، والليونة بالخشونة . فلا ودها يبقى ولا صفو عيشها يدوم ، ولا موعودها يتحقق . فكثيرا ما تخلف وعدها وكثيرا ما تخون من استوثق بها وصفاؤها لا يقاس بكدرها . يقول : (٢)

فإيَّاك والدنيا فإن نعيمَها   يزولُ وملبوسُ الجديدين يخلَقُ
فإن هي أعطتك الليانَ فإنها   ستخشُنُ من بعد الليان وتخرق

---

١ - الديوان ٧٨ .
٢ - الديوان ٣٨٦ .

فلا ودُّها يبقى ولا صفوُ عيشها ... يدومُ ولا موعودُها يتحققُ
فكم أخلفَتْ وعداً وملّت صحابةً ... وخانت وفيّاً فهي بلهاءُ تَترقُ
وكيف يعيشُ الدهرَ خلواً من الأسى ... سقيمٌ يغادَى بالهموم ويُطْرَقُ
لعَمْرُ أبي إن الحياةَ وإن صَفَتْ ... مسافةَ يومٍ فهو صفوٌ مرنَّقُ

- وكثيرا ما يوجه البارودي لومه وتقريعه لمن غرتهم الحياة الدنيا ، وشغلتهم عن الآخرة ، وظنوا أنهم قادرون عليها ، وما دروا أنهم يعيشون فيها إلى أجل محدود ، ولذا فعليهم ألا يغتروا بها ، ولا ينخدعوا بزينتها . ويذكر الشاعر هذا المغرور بأن يتأمل ما سيصير إليه حاله بعد الموت ، وما آل إليه حال من سبقوه إلى الآخرة . فإن تدبر هذا فسوف يزهد في الدنيا ويغير من سيرته فيها ، يقول البارودي : [1]

أيُّها المغرورُ مهلا ... لستَ للتكريم أهلا
كيف صادفتَ الأماني ؟ ... هل ترى بالدار أهلا ؟
ربَّ حسنٍ في ثيابٍ ... عاد غسليناً ومُهلا
وعيونٍ كنَّ سوداً ... صِرْنَ عند الموتِ شُهلا
سوف يلقَى كلُّ باغٍ ... في الورى خزياً وبُهْلا [2]

- ويحدثنا البارودي عن هذا الذي تذكر صباه فبكى وتمنى رجعته .

---

١ - ديوان البارودي ٤٥٥ .
٢ - البهل : اللعن .

ويخاطبه الشاعر بأن رجوع ما مضى من العمر شيء مستحيل . فهيهات أن يرجع يوم فات . ويذكر الشاعر أن كل شيء في هذه الحياة قد كتب عليه الفناء وليس الصبا وحده .ولذا فعلى الإنسان ألا يركن إلى هذه الدنيا ولا يغتر بلهوها وزينتها ؛ فهي سريعا ما تتغير وتقلب لأهلها ظهر المجن . يقول البارودي : [1]

ذكر الصِّبَا فبكى ولاتَ أوانُ ... من بعد ما ولَّى به الملوانِ
هيهات يرجع فائتٌ لعبَتْ به ... عُصُرٌ أوائلُ أردفت بثوانِ
هوِّن عليك فكلُّ شيءٍ ذاهبٌ ... والدهرُ مصدر عزةٍ وهوانِ
واحذَرْ من الدنيا إذا هي أقبلت ... بالبشر فهي كثيرةُ الألوانِ

– ويتخذ البارودي من الشيب وظهوره في رأس الإنسان وسيلة للوعظ وردع المغرور بالدنيا وتنفيره منها . فالشيب في نظره نموذج من نماذج النذر الكثيرة التي تنذر الإنسان بقرب أجله ؛ فإذا دب الشيب في رأس إنسان كان حريا به أن يقلع عن غيه ويتزود لآخرته ؛ فقد دقت فيه أجراس الموت وآذن العمر بالرحيل ، وتوشك حياته أن تنقضي وظلها أن ينحسر عنه إلى غير مآب . يقول البارودي في ذلك : [2]

يرى المرءُ عنوانَ المنون برأسِهِ ... ويذهبُ يلهي نفسَه ويصانِعُ

---

١ – ديوان البارودي ٥٨٣ .
٢ – ديوان البارودي ٣١٣ .

ألا إنـــما هذى الليالي عقاربٌ ... تدبّ وهذا الدهرُ ذئبٌ مخادِعُ
فلا تحسبنَّ الدهــرَ لعبةَ هازلٍ ... فما هــو إلا صرفُهُ والفجائعُ

وظهور الشيب في جسم الإنسان يعني تولي الشباب — الذي هـــو عنوان القوة والحياة — وما يترتب عليه من تولي الصبا وأوقـــات اللـــهو والطرب . وهذا يفرض على من تولى شبابه أن يرعوي وأن يأخذ الحيـــاة بمأخذ الجد . يقول البارودي في ذلك :(١)

إلامَ يـــهفو بحلمِـك الطَّـــرَبُ ؟ ... أبعــدَ خمســين في الصِّبـــا أَرَبُ ؟
هيهاتَ ولَّى الشـــبابُ واقـــتربت ... ســـاعةُ وردٍ نـالهــــا القُـــرَبُ
فليـــس دونَ الحِمَـام مبتعَـــــدٌ ... وليـــس نحـوَ الحيــاةِ مقـــتربُ

وتفكير الإنسان في شيبه وفيما مضى من عمره وشبابه يسبب لـــه الكثير من الأحزان ويبعد عنه كل لذة . وكيف يجد طعم اللذة من ابيـــض شعره ، وانحنى ظهره ، وذهب شبابه ؟! ويتخذ البارودي من نفسه دليـــلا على ذلك فيقول عن نفسه : (٢)

أعِــدْ يـــا دَهْـــرُ أيـــامَ الشـــبابِ ... وأين من الصبـــا دركُ الطَّـــلابِ ؟
زمـــانٌ كلَّمـــا لاحَـــتْ بفكـــري ... مخايلُـــه بكيـــتُ بغيـــظِ مـــا بي
مضى عـــنِّي وغـــادر بي ولوعـــاً ... تولَّـــدَ منـــه حـــزني واكتئــــابي
وكيف تلذُّ بعد الشـــيبِ نفســـي ... وفي اللـــذات إن ســـنحت عـــذابي

---

١ – ديوان البارودي ٧٧ .
٢ – ديوان البارودي ٥١ .

ويذكر البارودي أنه ليس المهم أن يفكر الإنسان في الشيب الـذي يعتريه ، وإنما المهم هو أن يجعل تفكيره فيما سيعقب هذا الشـيب فهو الأولى بالتفكير . فها هو البارودي كان يحزنه كثيرا ظهور الشعر الأبيض في رأسه ، ولكنه الآن يرى أن الموت الذي ينذر به هذا الشيب أولى بهمه وأحزانه . ومما يهون الأمر عليه ويخفف من شدة وطأته على نفسه أن هـذا الشيء ليس خاصا به وحده وإنما هو شيء قد كتبه الله على كل إنسـان ، والمهم أن يتعظ به الإنسان ويتدبر فيما سيأتي بعده . يقول البارودي : [1]

وكان يحزنني شيبي فصرتُ أرى أن الـذي بعده أولى بأحزاني
وهوّن الأمرَ عندي أن كلَّ فتى وإن تـملأ من ماءِ الصبا فاني

وهكذا صور البارودي الشيب بالناعي الذي ينعى إلى صاحبه حياته ونفسه ، وجعله بمثابة النذير الصادق الذي ينذره بدنو أجله وقرب وفاته، حتى يرتدع ويثوب إلى طريق الهدى والرشاد .

إلى غير ذلك من الأقوال والوسائل التي حاول البـارودي بهـا أن يدفع مثل هؤلاء العابثين إلى التخلي عن الاهتمام الزائد بأمور الحياة الدنيا والاشتغال بها . تلك الأمور التي صرفتهم عن دينهم وعن التعلق بـأمور آخرتهم . ومن هنا طلب منهم الشاعر أن يعودوا إلى التمسك بدينـهم ،

١ - ديوان البارودي ٥٨٥

وأن يكفوا عن الاشتغال الزائد بأمور دنياهم أو أن يقصروا تعلقهم عليها وحدها حتى يفوزوا في الدنيا والآخرة .

وهكذا أفاض البارودي في شعر الزهد من مواعظه البالغة المؤثرة منبها الغافلين الغارقين في الآثام ، الطامعين في الجنان إلى خطورة ما هم فيه من غي وعصيان . ومذكرا إياهم بأن الله ليس بغافل عما يعملون . وهذا لاقتناعه بأن الوعظ والإرشاد من الأبواب المهمة في شعر الزهد ؛ فالوعظ والإرشاد يتناسب مع معنى الزهد ومفهومه ويتصل به اتصالا قويا. ومن هنا أكثر منه البارودي وأطال الحديث فيه .

– كما أولى البارودي جانب التوجيه والنصح اهتماما كبيرا في شعر الزهد عنده . وفي هذا الجانب يتناول البارودي الكثير من التعليمات والتوجيهات التي يوجهها إلى قارئ شعره لتفيده في الحياة وفي تعامله مع الناس حوله :

– وأولى هذه النصائح والتوجيهات حثه الإنسان على اختيار الصديق صاحب الخلق الفاضل ، وذلك من خلال بيانه لحقيقة الصديق الحق الذي ينبغي على الإنسان أن يتحرى صفاته فيمن يتخذهم خلانا له وأصدقاء . يقول البارودي في ذلك : [1]

---

١ – ديوان البارودي ٤٤٦ .

ليس الصديقُ الذي تعلو مناسبُه ... بل الصديقُ الذي تزكُو شمائلُه
إن رابكَ الدهرُ لم تفشل عزائمُه ... أو نابكَ الهمُّ لم تفتُر وسائلُه
يرعاك في حالتي بُعدٍ ومقربةٍ ... ولا تغبُّكَ من خيرٍ فواضلُه

ويقول في موضع آخر عن صفات الصديق الذي ينبغي للمسلم أن يحرص على صداقة من اتصف بها : (١)

ولا تصطحبْ إلا امرءاً إنْ دعوتَه ... لدى جمرات الحرب لبَّاكَ واحتذى
يسرُّك عند الأمنِ فضلاً وحكمةً ... ويرضيك يوم الروع نبلا مقذذا

وعلى العكس من ذلك ينهى الباردي مخاطبه عن صداقة نوع من الناس تختلف صفاتهم عن صفات أولئك الأخيار المخلصين من الأصدقاء والذين رغب في التمسك بصداقتهم في الأبيات السابقة . يقول عن هذا الصنف من الأصدقاء الذين ينبغي أن نتجنب صداقتهم : (٢)

لا كالذي يدَّعي ودًّا وباطنُه ... بجمرِ أحقادِه تغلي مراجلُه
يذمُّ فعلَ أخيه مظهراً أسفاً ... ليوهم الناسَ أن الحزنَ شامله
وذاك منه عداءٌ في مجاملةٍ ... فاحذره واعلَمْ بأن الله خاذلُه

وواضح من هذه الأبيات أن البارودي ينهى عن صداقة المنافقين من الناس والذين يظهرون لخلانهم الود والوفاء ، ويضمرون لهم الشر

---

١ -ديوان البارودي ١٩٠ .
٢ - ديوان البارودي ٤٤٦ .

والعداء، ويبدون الأسى والحزن إذا ما أصيب الإنسان بالشر ويخفون ما يتمنون له من الأذى والمكروه .

ومرة أخرى يتحدث البارودي عن صاحب السوء ويطلب ممن يحادثه اجتناب مصاحبته فيقول : [1]

وعاشِرْ من الخلاّن من كان سالماً ... فليس سواءً سالمٌ ومريضُ

ومما يتصل بذلك أيضا قوله مبينا لمخاطبه حقيقة بعض الناس في هذه الدنيا حتى لا يغتر بظاهرهم ، ويكون على حذر منهم وهو يتعامل معهم: [2]

لا تحسَبِ الناسَ في الدنيا على ثقةٍ ... من أمرهم بل على ظنٍّ وتخييلِ
حبُّ الحياة وبغضُ الموتِ أورثهَمُ ... جبنَ الطباعِ وتصديقَ الأباطيلِ

ويبدو تأثر البارودي في ذلك بخبرته في الحياة وكثرة تجاربه في تعامله مع الناس من خلال وظائفه العديدة التي تولاها ، والتي كانت تحتم عليه التعامل مع أصناف مختلفة من البشر .

– ومن النصائح والتوجيهات في شعر البارودي في باب الزهد ما جاء في قوله يحث أخاه على طهر اللسان وعدم النطق إلا بما يحسن من

---

١ – ديوان البارودي ٣٠١ .
٢ – ديوان البارودي ٤٤٤ .

الكلام:[1]

طهِّر لسانَك ما استطعتَ ولا تكُنْ خِبـًّـا يقــوِّب للنفوس ضلالَها
إن الوقيعـــةَ لا تعـــودُ بخزيةٍ أو سبةٍ إلا علـــى مَنْ قالَـهـا

– وينصح البارودي أخاه بالتخلق بخلق الكرم والجود ، وبألا يكون من الممسكين بمالهم خوفا من رزق غد . فالله وحـــده مقــدر الـــرزق ، وعطاؤه – سبحانه – متصل بخلقه في كل وقت وحين . ولذا فإن الجـــبن والبخل منقصة تلحق البخيل والجبان . وسببها – في رأي الشاعر – سوء الظن بالله وعدم الثقة به والبعد عن التوكل عليه . يقول البارودي :[2]

جُدْ بالنـــوالِ فرزقُ الله متصلٌ ولا تكُنْ عن صنيع الخير باللاهي
فالبُخْلُ والجبنُ في الإنسانِ منقصَةٌ لـــم يجنها غـــيرُ سوءِ الظنِّ بالله

فالزيادة في المال دون بذله في قضاء حوائج المعوزين من المســـلمين يؤدي إلى التعاسة والشقاء بهذا المال ، لا إلى السعادة به والعزة . وقد قال البارودي في موضع آخر : [3]

إذا المرءُ لم ينفِق من المالِ وسع ما دعتـــه المعالي فالثراءُ هو الفقرُ

– ومن النصائح والتوجيهات في شعر الزهد عند البــــارودي مـــا

١ – ديوان البارودي ٤٤٦ .
٢ – ديوان البارودي ٥٩٦ .
٣ – ديوان البارودي ٢٧٥ .

طالب به غيره من الرجال أن يتمسكوا بالحزم ورفض الهوى والبعد عن طاعته والانسياق وراءه : (١)

مَنْ خالفَ الحزمَ خانته معاذرُه ... ومن أطاعَ هواه قلَّ ناصرُه
ومن تربّص بالإخوانِ بادرةً ... من الزمانِ فإنَّ اللهَ قاهرُه

– ويذكر البارودي أخاه بأن الله ﷻ أعطى الإنسان العقل والقدرة على التمييز . وكل إنسان أوضح أمامه طريقي الرشاد والغي وهو مخير بينهما ، ولكنه سيكون رهينا بما يجنيه ، وسوف يحاسب على ما قدمت يداه . وعلى الإنسان أن يكون على يقين من اتصافه بالفناء وعدم الخلود في هذه الحياة . وهذا ما يفرض عليه أن يجد في اتباع طريق الرشاد والصواب حتى يخلف ذكرى حميدة تكون ذخرا له بعد الموت . فالذكرى للإنسان بعد موته عمر ثانٍ . يقول البارودي : (٢)

كن كما شئتَ من رشادٍ وغيّ ... كلُّ حيٍّ بما جناه رهينُ
كلنا للفناءِ أو تصعقَ الأر ... ضُ وتأتي بعد الشئون شؤونُ
يستفزُّ الحليمُ رونقها البا ... هرُ حتى يخفَّ وهو ركينُ
ذهباً غير ذكرةٍ سوف تفنى ... بعد ضنٍّ وكلُّ شيءٍ يحينُ
فاحتقِبْ سيرةَ المحامد فالذكـ ... ـرُ حياةٌ لمن طوته المنونُ

---

١ – ديوان البارودي ٢٦٥ .
٢ – ديوان البارودي ٥٨٧ .

- فعلى الإنسان أن يتقي الله حق تقاته ، وأن يكون من هؤلاء الذين استشعروا تفاهة هذه الدنيا فلم يشغلوا بزخرفها وزينتها ، وطهروا أنفسهم من أدرانها ، وتعلقوا بالله وتطلعوا إلى ما أعده للمتقين المخلصين. ومن هذا المنطلق ينصح البارودي هذا الإنسان بأن يحذر الدنيا وغدرها ، ولا يركن إليها ، وألا يغتر بإقبالها عليه في بعض الأوقات ؛ لأنها سريعة التقلب ، كثيرة التلون . ومن عاش في غبطة في وقت ما يخشى عليه أن يكون من أهل المهالك . فعلى الإنسان أن يتوقع الجانب السيء من الحياة قبل أن يتوقع الخير منها . يقول البارودي : (١)

واحذرْ من الدنيا إذا هي أقبلَتْ ... بالبشرِ فهي كثيرةُ الألوانِ
ودع التعلقَ بالمحالِ فمَنْ بعِشْ ... في غبطةٍ يرمى به الرجوانِ
لا تأملنَّ بكلِّ عامٍ مقبلٍ ... خيراً فكلُّ الدهرِ عامٌ جوانِ

وقد نختلف مع البارودي في هذه النظرة السوداوية التي نظر بها إلى الحياة في الأبيات السابقة ، وأنه لا أمل في توقع الخير منها ، حتى وإن كان يعبر عن رؤية الإنسان الزاهد في الحياة ، فمع إيماننا بغدر الدنيا وعدم بقائها على حال واحدة فإنه يجب ألا نركن إليها ، وفي نفس الوقت علينا أن نعمل لها وأن نأخذ بأسبابها ونجد في تعميرها حتى لا نرمى

١ - ديوان البارودي ٥٨٣ .

بالتخلف والضعف عملا بقول القائل : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبـــدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ، وبقول الرسول ﷺ : - " إن قـامت الساعةُ وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل"[١].

وعلى كل فهذه النصائح والتوجيهات وما صدر عن البارودي مـن مواعظ وإرشادات تدل على طبيعة نفس البارودي الزاهدة ، وما تنطـوي عليه من الحب والإخلاص والوفاء للآخرين ، كما أثبت البارودي بها أنـه ليس فردا أنانيا ولكنه يهيب بكل إنسان أن يحرص على ما يجعله إنســانا نقيا صالحا ينأى بنفسه عن غضب الله وعصيانه وألا تغره الأمـــاني . ولم يبخل البارودي بنصائحه وبخلاصة تجاربه في هذه الحياة على أخيه الإنسان عسى أن تكون عونا له على النجاة من هول يوم القيامة .

وهكذا نرى البارودي وقد تمثل معاني الإسلام في جوهره ونظمـها شعرا على صورة تزهد ومواعظ وحكم ، وجاء بها في أســلوب سـهل قريب لا تعقيد فيه ولا معاظلة ، قاصدا من ذلك أن تسير هذه الأشـعار بين الناس فيسهل عليهم فهمها فيعملوا بما تشتمل عليه من مبادئ .

وكانت أفكار شعر الزهد وما يندرج تحتها من معان مستمدة كلـها من روح الإسلام وتعاليمه السمحة ، ووجدناه فيها يدعو تارة إلى الزهـد

---

١ - مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣ / ١٩١ . والحديث رواه أنس بن مالك .

في الدنيا والإعراض عنها وعن متاعها الفاني مبينا أثناء ذلك حقيقة هـــذه الحياة وحقيقة العيش فيها . وتارة يقف فيها واعظا يذكر الناس بـــالموت وما يعقبه من حساب وثواب وعقاب . وحينا وجدناه يدعو إلى التحلـــي بأخلاق الإسلام الفاضلة من مثل التواضع وعدم الكبر والتذرع بالصـــبر أمام شدائد الدنيا ونوائبها .. إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة والشـيم الإسلامية النبيلة والمعاني الروحية الصافية التي استمدها من روح الديـــن الإسلامي الحنيف . مما يدل على أنه كان في شعره هذا صـــاحب نفـــس طاهرة وقلب خاشع وروح إسلامية صافية .

مدى صدق البارودي في زهده :

وبعد أن تعرفنا — فيما سبق — على أهم المعاني التي تناولها البارودي في زهده ينبغي أن نتوقف قليلا عند واقعية هذا الفن عنده ومدى صدقـــه في زهده .

وبداية نقول : إن الصدق في العمل الأدبي يمنحه درجة عالية مـــن الجودة والتميز . وذكر الدكتور أحمد أمين أن أفلاطون هو أول من أعلـن الاهتمام بمبدأ الصدق في الأدب . وذكر " أن أساس كل عمـــل جيـــد وخالد فى الأدب هو الإخلاص التام من الفرد لنفسه . والإخلاص التـــام

منه لتجربته الخاصة في الحياة [1]" . ونوه الدكتور أحمد أمين بأهمية الصدق وتوافره في التجربة الأدبية فقال : [2]" وبدون الإخلاص لا يمكن أن يوجد في الأدب عمل حي . وميزة التجديد في الأدب التي يـــدأب النـــاس في البحث عنها ليست في الجدة ولكنها في الصدق . والإنسان سواء كـــان محيط تجربته وقوته الخاصة كبيرا أو صغيرا فإنه يجب أن يكتب عما تقـــوده إليه أقدامه ، وأن يهتم بوصف ما عاشه هو وما رآه وفكر فيه وأحســـه بصدق وأمانة . ونعني بالصدق أن يعبر عن إحساسه وشـــعوره لا عـــن إحساس غيره وشعوره " .

وحين نريد أن نحكم حكما صائبا على مدى الصدق في شعر الزهـــد عند البارودي لابد أن نرجع إلى سيرة حياة الشاعر ومعرفة الظروف الـــتي دفعته إلى إنشاد هذا الشعر : وهل كان هذا الشعر ترجمة حقيقية لفترة من فترات حياة الشاعر ؟ أم كان مجرد اتجاه فني في شعره شأنه شأن العديـــد من الأغراض الشعرية الأخرى في ديوانه ؟

" إن الكثير من الشعراء الزهاد بدأوا حياتهم خلعـــا ثم أدركتـــهم صحوة في ضمائرهم فأفاقوا مما هم عليه من إثم وتابوا وأنابوا وانقطعـــوا

---

١ – النقد الأدبي – أحمد أمين – دار الكتاب العربي – بيروت – ط ٤ – ١٩٦٧ جـــ ١ ص ٣٧ .
٢ – المرجع السابق ١ / ٣٧ .

للعبادة والتهجد وحياة الزهد " .[١]

والبارودي – كشاعر – يصدق عليه كثير من هذا الكلام ؛ ففي ديوانه الكثير من الأشعار التي وصف بها الخمر ، والكثير أيضا من شعر الغزل واللهو . مما يدل على أن حياته الأولى كان يشوبها بعض ما كانت تمتلئ به حياة بعض أقرانه من رجال الجيش وأصحاب المناصب العليا من متعة ولهو وجري وراء ملذات الحياة . ومن هنا يجوز لنا أن نحكم على صدق البارودي في شعره اللاهي الذي أنشده في هذه الفترة من حياته . ولا داعي لأن نتهم البارودي – بدافع تبرئته من الاتصاف بالفسق والفجور – بعدم صدق أشعاره في هذا الجانب . فقد عرف عن البارودي صدقه في تجاربه الشعرية حتى في الغزل والحديث عن الخمر . وقد أعلن ذلك الدكتور على الحديدي الذى كتب كتابا عن البارودى بعد أن جلس مع بعض أفراد أسرة البارودى وأخبروه عن كثير من دقائق حياته . يقول الدكتور الحديدى متحدثا عن صدق البارودي في غزلياته وواقعية شعره في هذا الجانب [٢] : " وغزليات البارودي في ديوانه ... تدل على أنه نقل فؤاده حيث شاء من الهوى ، وكابد الغرام الحقيقي مع أكثر من حبيبة في سنوات شبابه . " وظبية المقياس " كانت آثرهن عنده،ومن ثم

١ – شعر الزهد في القرنين الهاني والثالث للهجرة – علي نجيب عطوى ص ٢٠٠ .
٢ – محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص ١٠٩ .

كانت أكثرهن ذكرا في شعره ... "

ويقول في الرد على من يتهمون البارودي بعدم الصدق في غزلـه[١] حتى يثبتوا براءته من وقوعه في الحب والغرام وبعض هفوات الشـــباب: "وقد بدا لبعض الكتاب أن يؤكدوا أن البـــارودي لم يكـــن صادقـــا في غرامياته وقد جزموا بأن قصائده في هذا الفن لم تكن إلا محاكاة لأســـاليب الأقدمين . ولا ندري كيف جاز أن تقوم هذه الدعوى بالرغم من صـــدق العاطفة التي تفيض بها غزليات البارودي فتصل إلى قلوبنا وتشركنا معه في آلام نفسه ومشاعره وملذاته ووساوسه " . [٢]

هذا عن الغزل وما أكثر ما صرح به البارودي عن لهـــوه في هـــذا الجانب . أما عن الخمر فقد صرح البارودي كثيرا أيضا بمعاقرتـــه إياهـــا وشربه لها وتمتعه بمجالسها . وحين نقرأ هذه الأشعار نلمس صدقه فيـــها وواقعية كثير منها . وقد حكم الدكتور علي الحديدي بصدق البـــارودي في الحديث عن الخمر كما كان صادقا في غزله فقال [٣] : " إن البـــارودي تغنى بالخمر وآثارها في العقول والأحاسيس وبأوصافها وألوانها في جدتهـــا

١ - ومنهم الدكتور محمد حسين هيكل في مقدمته لديوان البارودي شرح علي الجـــارم ومحمد شفيق معروف .

٢ - محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص ١١٣ .

٣ - المرجع السابق ص ١١٤ .

وعتقها غناء خبير مارس الشراب حتى عرف أسرار التجربة . كل ذلـــك في عاطفة تفيض قوة وحيوية بل تفيض فرحا وبهجة ولذة ...... وديوانه مليء بمجالس الشراب في ليالي الأنس تارة في ثنايا قصـــائده وطـــورا في مقطوعات وقصائد مفردة يصف دنانها وندمانها وكئوسها وسقاتها وحـــتى صوت عطاسها حين تفتح للشاربين وصفا رائعا يعود أكثره بنا قرونـــا إلى الوراء لنستعيد ما نظمه أبو نواس وابن المعتز " . وهذا ما يدل على صدق شعره في الحديث عنها كما كان صادقا في الحديث عـــن مغامراتـــه مـــع الفتيات الحسان ومطارداته لهن .

هذا كله كان في الشطر الأول من حياة البارودي . ويذكر الدكتور علي الحديدي أن فترة اللهو والمتعة بالغزل والخمـــر انتـــهت فى حيـــاة البارودى في أواخر عام ١٨٦٧ م وبعد زواجه بعديلة هـــانم يكـــن .[١] وذكر البارودي في شعره أنه بعد هذا العام (١٨٦٧ م) بعام واحد وقـد بلغ بها التاسعة والعشرين من عمره (١٨٣٩ — ١٨٦٨م) بدأ عـــــهد جديد في حياته ابتعد فيه عن الصبا واللهو والغواية . ويتضـــح هـــذا في قوله:[٢]

نزعتَ عن الصِّبا وعصيتُ نفســـي   ودافعـــتُ الغوايـــــةَ بالتأسِّـــــي

١ - انظر المرجع السابق ١١٧ .
٢ - ديوان البارودي ٢٨٥ .

ومن يكُ جاوزَ العشـــرين تـــترَى ... وأردفَـــهَا بأربعـــةٍ وخمـــس
فقـــد ســـفوتْ لعينيـــه الليـــالي ... وبانَ له الهُـــدَى مـــن بعـــدِ لبْـــس

وقول في موضع آخر : [1]

متى أنتَ عن أحموقةِ الغيِّ نازعُ ... وفي الشيبِ للنفسِ الأبيةِ وازعُ ؟!
ألا إن في تسعٍ وعشرين حجةً ... لكـــل أخـــي لهوٍ عن اللهوِ رادعُ

ثم بعد ذلك نفي الشاعر إلى جزيرة " سرنديب " وطالت مدة نفيـه وبعده عن أهله ووطنه ، وأثناء هذه المدة مات ابنه وابنته وزوجته مما كـان له الأثر الكبير في تحويل حياته نحو مسار آخر يسوده الزهد وبغض الدنيـا والتفكير في الموت وما بعده .

وقد حاول الدكتور شوقي ضيف أن يتبين سبب تحول البـارودي في شعره من شاعر الحب والفروسية والخمر إلى شاعر معرض عـــن الدنيـا زاهد في زخرفها منشد لهذا اللون من الشعر " الزهـــدي " . وذكـــر أن البارودي أرجع سبب ذلك إلى ظهور الشيب في رأسه كما ورد في أبياتـه السينية السابقة . وتشكك الدكتور / شوقي ضيف في هذا السبب الـــذي ذكره الشاعر — وأنا معه — لأن ديوانه فيه الكثير من الأشعار التي نظمهـا في هذه الفترة من حياته — والتي سبقت النفي — تمتلئ بالحديث عن الصبا

١ -الديوان ٣١٣ .

واللهو ووصف الخمر وما يتصل بها من الفخر ووصف الطبيعة اللاهيـة .

ورأي الدكتور شوقي ضيف أن سبب هذا التحول في شعر الشاعر يرجـع – في الغالب – إلى هذا الضيق الذي بدأ يحس به بعد " إحساسه بفسـاد حاشية إسماعيل ، وفساد إسماعيل نفسه وما أخذ يثقل به ظهور البلاد مـن أعباء الديون . وآية ذلك الرأي ... ما يمتلئ به شعره حينئذ من شكوى ممضة يتبرم فيها بالناس وأخلاقهم وما يسارعون إليه من الشر البشع ، وما يضمرون من الخبث والمكر ومن الخيانة والغدر . وهو يطيل في هذه المعاني إطالة لا نعهدها عنده قبل هذه الفترة من حياته ".[1]

ويتفق مع الدكتور شوقي ضيف في رأيه هذا الدكتور علي الحديدي الذي يرى أن الدافع القومي وخوف البارودي على مصر بعد أن تعرضت إلى ما تعرضت له من ظلم على يد إسماعيل وحاشيته وما وقع فيها مـن أحداث تنذر بالخطر كان هو الدافع الأول لتحول البارودي مـن عـهد الصبا واللهو والغواية إلى عهد الجد والمسئولية والهدايـة . واستشـهد الدكتور الحديدي على ذلك بقصيدة البارودي العينية التي يقول في أبياتها الأولى :[2]

متى أنت عن أحموقةِ الغـيِّ نـازعُ وفي الشيبِ للنفسِ الأبيـةِ وازعُ ؟ !

١ – الباورودي رائد الشعر الحديث – ص ٥٩ .
٢ – الديوان ٣١٣ .

ألا إن في تسع وعشـــرين حجـــةً   لكل أخي لهـــو عـــن اللـــهو رادعُ
فحتَّـام تصبـــك الغـــواني بدلِّهـــا   وتهفو بليتيـــك الحَمَـــامُ الســـواجعُ
وهل يستفيقُ المرءُ من سكرةِ الصبـا   إذا لم تهـــذب جانبيـــه الوقـــائعُ ؟

ويرى الدكتور الحديدي أن " القصيدة تشهد ميلاد ثورة أخـــذت تجتاح البارودي وتملأ عليه نفسه ودنياه وتنقله من عالم الفردية الذاتية التي يعيش فيها إلى محيط العمل من أجل الجميع ، ومن محور الحيـــاة الخاصـــة الذي يدور فيه إلى مجال النضال الوطني الكبير ... ومثل هذا التحـــول الكبير لا يمكن أن يحدث للبارودي فجأة ودون بواعث ومقدمـــات أو أن يسببه بلوغه سنا معينة في حياته . بل لابد أن دوافع قوية كانت وراء هـذا التحول . وتجارب معينة عاشها البارودي فانفعلت بها نفسه وشحنت بهـــا عواطفه حتى وصلت إلى درجة التشبع فأفاق " . (١)

ومفهوم الكلام السابق أن هذا التحول في شعر البارودي يرجـــع إلى أزمته النفسية التي ترجع – كما يذكر الدكتور شوقي ضيف والدكتـــور علي الحديدي – إلى أسباب قومية ولم تكن ترجع إلى أسباب شخصية .

وأنا أرى أن الأسباب القومية التي ذكرها الدكتور شوقي والدكتور الحديدي – إن تأثر بها الشاعر – تجعله يميل إلى الثورة والعنف والقول في

---

١ – محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص ١٢٣ .

الهجاء وإثارة المشاعر القومية ضد الحاكم وحاشيته — وخاصة إذا كـــان الشاعر من طراز البارودي الوطني الفارس — لا إلى الانـــزواء والعزلـــة وإنشاد الشعر في الزهد .

بجانب هذا فأنا ألاحظ أن إكثار البارودي من شعر الزهد حـــدث بعد أن توفيت زوجته في حوالي عام ١٨٨٩ م وبعد أن تزوج بعد وفاتهـا بابنة وفيقه في سرنديب يعقوب سامي وانتقل بها إلى مدينة " كنـــدى " في وسط جزيرة سرنديب؛إذ " نلاحظ منذ إقامته بهذه المدينة تحولا يحــدث في نفسه (وفي شعره) . إذ أخذ يتجه إلى ربه يريد أن يلوذ بكنفـــه ؛ فقــد تكاثرت عليه المحن والخطوب ، وتكسرت النصال تلو النصال مما جعلـــه يزهد في الحياة " (١) . ومنذ هذا التاريخ نراه يكثر من إنشاد شعر الزهــد يعلن فيه توبته وروجوعه إلى الله — سبحانه وتعالى — وإعراضه عن الحيــاة ومتاعها الفاني . وأنا أقول إنه منذ هذا التاريخ بدأ البارودي يكــثر مــن إنشاد شعر الزهد والشعر الدينى وإن كان قد أنشد بعض أشعار الزهـــد قبل الفترة التي نفي فيها . وأنا في ذلك أتفق مع الدكتور علي الحديدي في قوله : (٢) "ولا ندعي أن محنة النفي هي التي وجـــهت البـــارودي هـــذه الوجهة الدينية أو سارت به في تيار الزهد . فشعر الزهد ظهر في شـــباب

---

١ - البارودي رائد الشعر الحديث - شوقي ضيف ٩٣ .
٢ - محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص ٣١٢ .

البارودي كما ظهر في شيخوخته وقال فيه قبل النفي كما قال بعده . غير أن النفي نمى هذا الاتجاه وقواه عنده ".

وهذا كله ما يؤيد صدق البارودي في شعره في الزهد . وأنه كـــان يعبر فيه عن إحساس صادق وشعور حقيقي ولم يكن شعره هـــذا نتيجـــة تقليد أو مجاراة لغيره من الشعراء السابقين .

إن أهم ما يتسم به شعر البارودي بصفة عامة هو صدق التجربـــة الشعرية حتى " ليرى الدارس في شعر البارودي ترجمان ذاته وصورة حياته وصدى لخوالج نفسه فلا يجد مندوحة من تقرير أنه أمام شـــاعر صـــادق مطبوع " . (١)

وقد قرر ذلك أيضا الدكتور شوقي ضيف في مقدمة كتابـــه عـــن البارودي فقال : (٢) " ومن أهم ما يروع قارئه الصدق في تجربته الشعرية، وحقا كان يمعن في استخدام العناصر الشعرية التقليدية غير أنـــه إمعـــان الرمز لا إمعان الجمود والتقليد السقيم . إمعان يزدوج فيه القديم والجديد والماضي والحاضر ليتوهج الشعر توهجا يزيده جمالا وروعة ويسند الصدق عنده براعة تصويره للمشاهد الحسية والمعنوية " .

---

١ – في الأدب العربي المعاصر – القسم الثاني – د . إبراهيم عوضين ص ١٥٠ .
٢ – البارودي رائد الشعر الحديث ص ٧ .

ويقول في موضع آخر مؤكدا المعنى ذاته (١) : " وشعر البارودي... صورة صادقة لحياته وقومه وبيئته المصرية وكل ما ألم به من بيئات . وهو يروعنا بهذا الصدق الذي لا يشوبه تمويه . وهو صدق استتبع في قصيدته أن تكون تجربة فنية أحسها الشاعر وملأت جنبات قلبه . وهي تجربة لا تزال أبياتها تتولد في نفسه متلاحقة بيتا من وراء بيت حتى تتم القصيدة صورة لنفسه ومشاعره ". (٢) وهذا الكلام مع ما سبق من دوافع قوله في الزهد يجعلني أحكم على شعر البارودي في الزهد بالصدق والواقعية في كثير منه . وما قد نراه في ديوان البارودي من بعض مظاهر التناقض بين أقواله من خلال قصائده في الأغراض الشعرية المختلفة لا ينبغي أن يدفعنا إلى إصدار حكم على البارودي نتهمه فيه بضعف العقيدة أو الإيمان بالله . وإنما يجب أن نعطي الرجل حقه من الإنصاف والحيدة في الحكم عليه . فالبارودي في الشطر الأول من حياته كان مولعا بالدنيا طالبا لها مقبلا عليها مثل غيره من رفاقه أو ممن هو في درجته الاجتماعية والثقافية . وهذا شيء طبيعي ولا نستطيع أن ننكره عليه . ولكنه بعد ذلك تاب وأناب وزهد في الدنيا وزخرفها . والإسلام لم يطلب من المسلم أن يقف

---

١ – المرجع السابق ١٨٧ .

٢ – انظر في ذلك أيضا كتاب : فصول في الأدب الحديث والنقد د . / يوسف عز الدين – دار العلوم للطباعة والنشر – ١٩٨٢ م ص ٦٨ / ٦٩ .

من الدنيا موقف الرافض أو السلبي على طول الخط . بل طلب من المسلم أن يأخذ منها بنصيب وأن يعمل في نفس الوقت من أجل الآخرة . فالمؤمن الصحيح هو الذي يجمع بين خيري الدنيا والآخرة . فيعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ويعمل لآخرته كأنه سيموت غدا كما ورد في الأثر . فمن الإنصاف أن نقول : إن البارودي " كغيره من كثير من الشعراء الذين ربطوا بين أمور الدنيا والدين فأخذوا من الأولى بنصيب ، وأعطوا الثاني حقه الكافي من الإيمان والعمل الصالح " . (١)

فالبارودي كان صادقا في زهده كما كان صادقا في غزله وخمرياته وفي غيرهما من أغراض شعره الأخرى .

ومن أدلة صدق البارودي في زهده هجره لملذاته في الشطر الثاني من حياته وزهده عما في أيدي الناس أو طلب العون منهم . فهو أبي النفس لا يذلها لأحد غير الله – تعالى – كما أشار إلى ذلك في قصيدة له قالها وهو في منفاه يتحدث فيها عن ظلم حكام مصر في تلك الفترة وكيف سارت الأمور حتى أدت به إلى النفي والبعد عن الأهل والوطن :

فما أنا ممن تقبل الضيمَ نفسُه ... ويرضَى بما يرضَى به كلُّ مائقِ
إذا المرءُ لم ينهض لما فيه مجدُه ... قضى وهو كَلٌّ في خدور العواتقِ
وأيُّ حياةٍ لامرئٍ إن تنكرت ... له الحال لم يعقد سُبور المناطق ؟

١ – شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة – د ، على نجيب عطوى ص ٢٤١ .

فمـــا قَذَفَــاتُ العــزِّ إلا لمـــاجدٍ إذا هَمَّ جلّى عزمَــه كـــلَّ غاســـقِ
يقول أناسٌ إنـــني ثــرتُ خالعـاً وتلك هناتٌ لم تكن مـــن خلائقـــي
ولكنني نـــاديتُ بـــالعدلِ طالبـاً رضا الله واستنهضت أهلَ الحقـائق[١]

ويقول في قصيدة أخرى له في سرنديب : [٢]

غنيتُ عما يهينُ النفسَ من عَرَضٍ فمـــا عليَّ لحيٍ في الوَرَى مِننُ

إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة — والتي قالها في الشطر الثاني مـــن حياته — يعبر بها عن عزة نفسه وكبريائه وعن كرهه للحياة واعتصامه بالله عز وجل.

وخلاصة القول في هذه المسألة هي أنني أميل إلى الحكـــم بصـــدق البارودي في شعره في الزهد وخاصة ما قاله منه في الفترة الأخـــيرة مـــن حياته . تلك الفترة التي توالت عليه فيها الأحداث والمصائب . مما جعلتـه يغير من نظرته إلى الحياة ويقف منها موقف الكاره لها الزاهد في متاعـــها وزخرفها ويعبر عن نظرته إليها وعن كرهه لها بهذه الأشعار المفصحـــة . وقد يقلل من صفة الصدق الفني في شعر الزهد عند البارودي لجـــوؤه إلى ما يسمى بلزوم ما لا يلزم في بعض قصائده في هذا الباب . ولكن ذلـــك

١ – الديوان ٣٨٩ .
٢ – الديوان ٥٥٥ .

قد أتى به البارودي في بعض القصائد فقط ليدلل به على مقدرته الفنيـــة وقدرته على مثل ما أتى به بعض كبار الشعراء العرب دون أن تؤثر علـــى درجة صدقه في عاطفته أو واقعية تجربته .



الفصل الثالث

الظواهر الفنية فى شعر الزهد عند البارودى

برزت فى شعر الزهد عند البارودى عدة ظواهر فنية تميز بها عن شعره فى الموضوعات الأخرى ، وهذا ما يلاحظه المتأمل فى شعر الزهد عامة ؛ إذ أن لخصوصية أفكاره ومعانيه أثر فى الطريقة التى يتناول بها الشاعر هذه الأفكار والمعانى . وإن وجدت بعض هذه السمات والظواهر الفنية فى موضوعات الشعر الأخرى إلا أنها تكون ذات طبيعة خاصة فى شعر الزهد تختلف عما هى عليه فى غيره .

وهذه أهم الظواهر الفنية وسمات كل منها فى شعر الزهد عند البارودى :

أ - التأثر بالقرآن الكريم :

تأتى ظاهرة تأثر البارودى بالقرآن الكريم معنى وأسلوبا، والاقتباس من معانيه وألفاظه فى مقدمة الظواهر البارزة فى شعر الزهد عند البارودى. فقد اتضحت هذه الظاهر فى كثير من قصائده ومقطوعاته سواء فى الجانب العقدى،أو فيما يتعلق بالتأمل فى ملكوت السماوات والأرض ، أو فيما يتصل بالنصح والتوجيه .

والتأثر بالقرآن الكريم واقتباس بعض ألفاظه ومعانيه يتناسب تماما مع فن الزهد وما يتناوله من معانٍ ؛ فأفكار شعر الزهد ومعانيه يتكئ فيها الشاعر على ما ورد فى القرآن الكريم من شرائع وتوجيهات . ولذا كان من الطبيعى أن يتأثر البارودى بآيات القرآن الكريم التى تتناول حقيقة الحياة والموت . وتنفير المسلم من التعلق الشديد بالحياة الدنيا ، وحثه على العمل لما بعد الموت ، ومصير الإنسان بعده ، والتعريف باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب ، وثواب وعقاب ، وجنة ونار . ثم بما فيها من حث على التخلص بالأخلاق الفاضلة ، والتنفير من الرذائل والموبقات . إلى غير ذلك مما تردد فى شعر الزهد عند البارودى . ولم تقتصر علاقة شعر البارودى فى الزهد بالقرآن الكريم عند حد التأثير، وإنما نجده يقتبس الكثير من ألفاظ القرآن الكريم وعباراته ومعانيه . وقد برزت هذه الظاهرة فى مثل قول البارودى [1] :

ولا تلتمسْ فى غيرِ مولاك هادياً   إذا اللهُ لم يهدِ العبادَ فمن يهدِى ؟

فالله وحده هو الذى يجدر بالعبد أن يلجأ إليه يلتمس الهداية منه ، فهو وحده بيده النفع والضر ، يهدى من يشاء برحمته ، ويضل من يشاء بحكمته . والمعنى فى الشطر الثانى مقتبس من معنى قوله – تعالى – ﴿ مَنْ

---

١ – ديوان البارودى ١٧٧ .

يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدا ﴾ [١] .

– وفى حديث البارودى عن قدرة الله سبحانه وتعالى – فى تسخير الشمس والقمر وجريان كل منهما بحسبان ، ثم فى إرسال الرياح التى تثير سحابا ينزل الغيث فتحيا به الأرض بعد موتها . يقول البارودى : [٢]

وقدَّرَ الشمسَ تجرى فى منازلها ... والنجمُ والقمرُ السارى بحسبان
وأرسَلَ الغيثَ إرسالاً برحمته ... وأنبتَ الأرضَ من حَبٍّ وريحانِ

ونجد البارودى هنا متأثرا بحديث القرآن الكريم عن هذه المعانى ومقتبسا العديد من ألفاظه فى التعبير عنها . فى البيت الأول نلحظ أنه شديد التأثر بقوله – تعالى – : ﴿ والشمسُ تجرى لمستقر لها ذلك تقديرُ العزيز العليم . والقمرَ قدرناه منازلَ حتى عادَ كالعرجونِ القديم ﴾ [٣] وبقوله – تعالى – ﴿ والشمسُ والقمرُ بحسبان ﴾ .[٤] وكان فى البيت الثانى متأثرا بمثل قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يرسلُ الرياحَ بشراً بين يدى رحمته حتى إذا أقلَّت سحابا ثقالا سقناه لبلدٍ ميت فأنزلنا به الماءَ فأخرجنا به من كلِّ الثمرات ﴾ [٥] وبقوله – تعالى – ﴿ والحَبُّ ذو العَصْف

١ – الآية رقم ١٧ من سورة الكهف .
٢ – ديوان البارودى ٥٨٥ .
٣ – الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة يس .
٤ – الآية رقم ٥ من سورة الرحمن .
٥ – من الآية رقم ٥٧ من سورة الأعراف .

والريحان ﴾ (١). كما كان البارودى شديد التأثر بالقرآن الكريم فى حثه على التقوى والتخويف من اليوم الآخر فى قوله : (٢)

يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكم   واخشَوْا عذابَ اللهِ والآخرة

فهذا البيت يكاد يكون نظما لقوله – تعالى – : ﴿ يا أيها النـــاسُ اتقوا ربَّكم واخشَوْا يومًا لا يجزى والدٌ عن وَلَدِه ...... ﴾ (٣)

– وفى قول البارودى عن معنى مجازاة الإنسان فى الآخرة بما قدمت يداه فى الدنيا إن خيرا فخير وإن شرا فشر : (٤)

كُنْ كما شئتَ من رشادٍ وغيّ   كــلُّ حــيٍّ بما جنــاه رهينُ

نجده متأثرا فى الشطر الثانى بقوله – تعالى – : ﴿ كلُّ نفــس بمــا كسبتْ رهينة ﴾. (٥) أما الشطر الأول فالمعنى فيه مستمد من مثل قولــه – تعالى – : ﴿ وقلِ الحقُّ من ربِّكم فمن شاءَ فليؤمن ومن شاء فليكفُرْ ﴾. (٦)

وتبدو ظاهرة التأثر بالقرآن الكريم أيضا فى قول البارودى : (٧)

---

١ – الآية رقم ١٢ من سورة الرحمن .
٢ – ديوان البارودى ٢٦٤ .
٣ – من الآية رقم ٣٣ من سورة لقمان .
٤ – ديوان البارودى ٥٨٧ .
٥ – الآية ٣٨ من سورة المدثر .
٦ – من الآية رقم ٢٩ من سورة الكهف .
٧ – ديوان البارودى ٨٤ .

كلُّ حيٍّ سيموتُ   ليسَ فى الدنيا ثبوتُ

فقد تأثر فيه البارودى بمثل قوله - تعالى - ﴿ كلُّ نفـــس ذائقــةُ الموتِ وإنما تُوَفَّوْنَ أجورَكم يومَ القيامةِ فمن زُحزحَ عن النّارِ وأُدخلَ الجنةَ فقد فازَ وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور ﴾ .[1]

وغير ذلك كثير من الأبيات التى يتضح فيها تأثر البارودى بـالقرآن الكريم واقتباسه من ألفاظه . وكان لتأثر الشاعر بالقرآن الكـــريم معــنى ولفظا وأسلوبا أثره فى اختفاء الألفاظ الوحشية والمستهجنة أو المبتذلـــة ، مع تميز الأسلوب فى الوقت نفسه بالقوة والوضوح .

ب - بناء القصيدة وخلوها من المقدمة التقليدية :

والظاهرة الثانية فى شعر الزهد عند البارودى هى عدم اســـــتهلال القصيدة بالمقدمة الطللية أو الغزلية . شأنه فى ذلك شأن شعراء الزهـــد فى العصور الأدبية المختلفة . حيث نجد القصيدة أو المقطوعة تـــدور حـــول معانى الزهد من أولها حتى منتهاها . وهكذا نجدها عند البارودى ؛ فعلـــى الرغم من تمسك البارودى فى شعره بالأسلوب التقليدى فى بناء القصيـــدة إلا أنه تخلى عن هذا الأسلوب فى بناء قصيدة الأسلوب ، فلم يمهد لمعانيــه فيها بمقدمات طلليه أو غزلية أو غيرهما كما كان يفعـــل فى كثـــير مـــن

١ - الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران .

قصائده فى الأغراض الأخرى . وقد يرجع ذلك إلى انشغال الشـــاعر فى باب الزهد بتوصيل المعنى إلى ذهن القارئ أو السامع بطريقة مباشرة دون حاجة إلى تمهيد أو واسطة . فضلا عن أن كثيرا من شعر الزهـــد عنـــد البارودى لم يأت فى صورة قصائد مستقلة بهذا الغرض . وإنما جاء علـــى صورة مقطوعات قصيرة أو أبيات منثورة فى ثنايا قصائده فى الموضوعـــات الأخرى .

وعدم بدء قصيدة الزهد بنوع من المقدمـــات التقليديـــة ســـلوك يتناسب مع معانى الزهد وطريقة تناول الشاعر لهذه المعانى . فالشـــاعر فى قصيدة الزهد يشغله تفكيره فى المعنى الدينى الذى يريد التعبير عنه ويحاول أن يوصله إلى أذهان قارئيه أو سامعيه من أقصر طريق . وبحيـــث يجعـــل تفكيرهم كله فيما يتلوه عليهم من معان ولا يشغلون بأى موضوع آخر . فالشعراء فى هذا الغرض ليسوا بحاجة إلى الالتزام بالمنهج الفنى ، كما أنهم ليسوا فى حاجة إلى تهذيب أشعارهم وتجويدها بالدرجة التى نجدها عنـــد شعراء المديح . فشاعر الزهد لا ينتظر ثمنا أو عطاء ولا يريد به تحقيق جـاه أو سلطان . ومن ثم لم يجد الشاعر من هؤلاء أنه من المستحسن أن يجمـــع بين أبيات الزهد وبعض أنواع المقدمات التقليديـــة . " وقـــد يكـــون فى المقدمة الطللية رمز لمعنى الحياة والموت يناسب الأفكار الزهدية . ولكـــن طبيعة القصيدة الزهدية أن تصل مباشرة إلى العقل والقلب بغير حاجـة إلى

وساطة من الرمز أو أى وسيلة أخرى تعوق وصول المعنى بطريقة مباشرة"[١]. ومن هنا ابتعد شعراء الزهد عن مثل هذه المقدمة ، كما ابتعدوا عن غيرها مما كانت تبتدى به القصائد الشعرية فى العصور السابقة.

على أننا قد نجد البارودى يأتى ببعض معانى الزهد وأبياته فى ثنايا قصائد تدخل تحت موضوعات أخرى غير موضوع الزهد ، ويبدأ هذه القصائد بمقدمة من المقدمات التقليدية . ومن هذه القصائد قصيدته الميمية التى يتذكر فيها أيام شبابه ، والتى قال عنها الأستاذ على عبد المقصود عبد الرحيم شارح ديوان البارودى أنه يعارض بها قصيدة أبى نواس فى مدح الأمير محمد بن هارون الرشيد التى مطلعها :

يا دارُ ما فعلت بكِ الأيامُ   لم تبق فيك بشاشةٌ تستامُ

وقد بدأ البارودى قصيدته هذه بقوله [٢] :

أَسَلِ الديارَ عن الحبيبِ وفى الحَشَا   دارٌ لـه مأهـولـةٌ ومقـامُ

فقد اشتملت القصيدة على أبيات كثيرة فى استرجاع أيام الشباب ومجالسها مع الرفاق وما كان فيها من لهو وخمر . كما أفاض فيها فى الحديث عن وصف الخمر ومعاقرتها وأثرها فى شاربيها . وفى ثنايا القصيدة

---

١ – شعر الزهد فى القرنين الثانى والثالث للهجرة ص ٣٢٣.
٢ – ديوان البارودى ٤٧٠ .

يتحدث فى بعض أبياتها عن الموت والفناء وسرعة انقضاء سنوات العمر ، وعن بعض ما حدث للأمم السابقة مما يدخل فى باب الزهد .

كما نجد بعض القصائد فى ديوان البارودى ليست خالصة فى باب الزهد ؛ بحيث تأتى مقدمتها فى الزهد ، ثم يعدل عن الزهد إلى موضوعات أخرى . ومن ذلك – على سبيل المثال – قصيدته العينية المبدوءة بقوله:[1]

متى أنتَ عن أحموقةِ الغيِّ نازعُ وفى الشيبِ للنفس الأبيةِ وازعُ ؟ !

فهى ليست خالصة فى الزهد وإنما فيها الكثير من الأبيات التى يتحدث فيها البارودى عن معان أخرى ، مثل حديثه عن موقفه من بعض خلانه الذين لا يرضى عن كثير من مواقفهم وتصرفاتهم فى الحياة . كما يفخر فيها بكثير من الصفات التى يتباهى باتصافه بها . وقد تفسر هذه الظاهرة بأن البارودى كانت تعن له بعض المعانى الزهدية فيتحدث عنها ثم يستطرد إلى ذكر بعض ما حدث له من بعض خلانه مما يخالف هذه المعانى الدينية . أو أنه كان يتحدث عن أيام الشباب وما كان فيها من إسراف ولهو فجره إلى الحديث عن سرعة زوال هذه الأيام وما كان فيها ، ومن ثم إلى الحديث عن الدهر وبغتاته وسرعة انقضاء أيامه ، ثم عن زوال الأمم والشعوب .

---

١ – ديوان البارودى ٣١٣ .

جـ - الصور البلاغية :

والظاهرة الثالثة فى شعر الزهد عند البارودى هى كثرة استخدامه الألوان البلاغية فى شعره فى هذا الغرض والاستعانة بها فى رسم الصور وتجسيد المعانى حتى تكون قوية التأثير فى نفس السامع أو القارئ .

ومن المسلم به أن للصور البلاغية أثرها فى قوة الشعر وما يحمله من أخيلة . فبها يستعين الشاعر على إبراز جمال المعانى وتجسيدها فى صور حية جميلة يألفها القارئ والسامع .

وكانت أبرز الألوان البلاغية وجودا فى شعر الزهد عند البارودى : التشبيه ، والاستعارة، وبعض ألوان البديع . وعلى الرغم من كثرة هذه الألوان فى شعر الزهد عند البارودى إلا أننا نلحظ أن وجودها فى هذا الباب أقل من وجودها فى غير هذا الباب من موضوعات شعر البارودى . وقد يفسر ذلك بانشغال الشاعر بنفسه ، وبما يفكر فيه من أمور الدنيا والآخرة فى شعر الزهد ، والذى يصرفه عما قد ينشغل به فى فنه من موضوعات الشعر الأخرى كالمديح مثلا ، الذى يهتم فيه الشاعر بإظهار عبقريته الفنية والاستحواذ على إعجاب ممدوحه ، ولفت نظر النقاد إليه حتى يثبت تفوقه الشعرى . فنراه يبذل فى مثل هذا الموضوع جهدا غير عادى فى اختيار الألفاظ ، وفى صياغة الصور الفنية وفى تنوع أنماطها

واختلاف أشكالها .على حين يكون الشاعر فى بـــاب الزهـــد مـــهموما مشغولا خائفا قلقا يكف عن شطحات الخيال ، وينظر إلى الواقع ، ويعلـن عن إقلاعه عن الخطايا ، ويلجأ إلى ربه ويطمع فى غفرانه ورحمته . ولذا لا يشغل نفسه كثيرا باستجلاب الصور البلاغية أو بتنميقـــها والتـــأنق فى صياغتها ، وإنما يكون اهتمامه الأول بالمعنى وقوته فيحرص على أن يكون المعنى قريبا مصاغا بأبسط تعبير ليصل إلى المتلقى مـــن أقصـــر طريـــق ، واضحا لدى العامة من الناس ، سريع العلوق بأذهانهم فيستجيبون لما فيــه من وعظ وتوجيه .

ومعنى هذا أن الألوان البلاغية فى شعر الزهد جـــاءت فى معظـــم الأحيان بسيطة عفوية . وهذا ما يلحظه قارئ هذا الشعر ؛ إذ يحس بـــأن هذه الألوان جاءت متوائمة تماما مع المعنى ، طبيعية لا تكلف فيها لم يســع الشاعر إليها ، مما جعلها تؤدى مهمتها أحسن ما يكون الأداء .

– ومن التشبيهات التى استعان بها البارودى فى رسم صوره هـــذا التشبيه الجميل الذى شبه فيه الشيب الذى بدأ يظهر فى شعر رأسه بنـــور الفجر الأبيض يشق سواد الليل بضوئه . وصور البارودى هـــذا النـــور باللسان الذى ينطق بما يحاول أن يكتمه الإنسان من تقـــدم العمـــر بـــه

وانحداره نحو الموت . يقول البارودى : [١]

وشيبةٍ كلسانِ الفجرِ ناطقةٍ   بما طواه عن الإفشاءِ كتمانى

فالشيب فى رأس الشاعر شبيه بنور الفجر الذى يضىء الكون فيكشف ما حاول إخفاءه ويبرز أثر مرور الزمان وأحداث الدهر على جسم الإنسان .

ومنها هذا التشبيه الذى صور فيه الدنيا بالخيال الذى يراود بعض الناس ولكنه لا حقيقة له . يقول البارودى [٢] :

إنما الدنيا خيالٌ   باطلٌ سوف يفوتُ

ومن شأن هذه الصورة التى أبرزها التشبيه أن تبعد الإنسان عن التعلق بالدنيا وعن الاغترار بها ؛ لأنها كالخيال الباطل الذى ينقضى سريعا وكأنه لم يكن .

وشبه البارودى الليالى فى بيت آخر بالعقارب التى تسير سيرا لينا خفيا حتى لا يدرى بها الإنسان فتتمكن من لدغه . كما شبه الدهر بالذئب المخادع الغدار ، فقال: [٣]

ألا إنما هذى الليالى عقاربٌ   تدبُّ وهذا الدهرَ ذئبٌ مخادعُ

---

١ - ديوان البارودى ٥٨٤ .

٢ - ديوان البارودى ٨٥ .

٣ - ديوان البارودى ٣١٤ .

وتصوير الليالى — عن طريق التشبيه فى هذا البيت — بالعقارب ، ثم تصوير الدهر بالذئب المخادع يبرز لنا الليالى والدهر فى صورة مقززة تؤدى إلى الغرض الذى قصده الشاعر من البيت — وهو الفرار من الدنيا وعدم التعلق بها وعدم الحرص على الزيادة من متاعها .

— أما الاستعارة فلها دور كبير فى حسن التصوير وإبرازه فى صور محسوسة . وجعلها ابن رشيق القيروانى " أفضل المجاز وأول أبواب البديع. وليس فى حلى الشعر أعجب منها . وهى من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها " . (١) وذكر أنها هى والتشبيه " يخرجان الأغمض إلى الأوضح ، ويقربان البعيد "(٢) ولذلك اعتمد عليها الشعراء فى تحسين المعنى وتزيينه وإبراز المعنوى فى صورة المحسوس . وقد اعتمد عليها البارودى فى شعر الزهد لتحقيق هذا الأثر فى كثير من الأحيان .

— ومن الاستعارات الطريفة المعبرة عن الصورة المرادة ما جاء فى قول البارودى متحدثا عن الشيب (٣) :

وشيبةٍ كلسان الفجرِ ناطقةٍ ... بما طواه عن الإفشاءِ كتمانى

١ – العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده – تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد – طبعة دار الجيل – بيروت – ط ٤ – ١٩٧٢ م – ١/ ٢٦٨ .
٢ – المرجع السابق ١ / ٢٨٧ .
٣ – ديوان البارودى ٥٨٤ .

ففى كل من شطرى البيت استعارة مكنية أدت كل منهما دورها فى تصوير المعنى وإبرازه : حيث صورت الأولى الفجر بنوره الأبيض بالإنسان الناطق المبين . وصورت الثانية الكتمان بالإنسان الذى يطوى بداخله شيئا غير محبوب لا يريد أن يبوح به وقد أفصح عنه الشيب بلونه الأبيض .

– ومنها هذه الاستعارة التى صور بها أهمية تقوى الله – سبحانه وتعالى – فى هذه الدنيا فى صورة الغذاء الأفضل للإنسان والذى لا غنى عنه لأى حى . يقول : (١)

إنَّما الدنيا خيالٌ   باطــلٌ سوف يفوتُ
ليـسَ للإنسان فيها   غيـرَ تقوى الله قوتُ

وقد ساهمت الاستعارة فى البيت الثانى فى إبراز أهمية تقوى الله – سبحانه – بالنسبة لكل إنسان عن طريق تصوير التقوى فى صورة القوت الذى هو ضرورى لكل حى . وكأن الإنسان البعيد عن تقوى إنسان ميت لا حياة فيه تماما كالإنسان الذى لا يتناول ما يكفيه من قوت .

وإذا كان البارودى فيما سبق قد صور الشعب بإنسان ذى لسان فصيح ناطق ينذر باقتراب نهاية عمر الإنسان ، مثله مثل ضوء الفجر

---

١ – ديوان البارودى ٨٥ .

المؤذن بانتهاء سواد الليل ، وقرب ظهور ضوء الصبح – فإنه يجعلـــه فى بيت آخر عنوانا للموت يراه المرء برأسه كلما نظر فى المرآة فيقول : (١)

يرى المرءُ عنوانَ المنونِ برأسِهِ ويذهبُ يُلهِى نفسَه ويصانعُ

ففى البيت استعارة تصريحيه صور بها الشيب بـــرأس الإنســـان فى صورة عنوان للموت . والذى ينبئ عن اقتراب أجل هذا الإنسان مـــن النهاية كما يدل العنوان على صاحبه . وجعله برأسه ليكون فى موضـــع بارز يعلن الإنسان بوضوح وصراحة عن تولى الزمان وانصرافه عن هـــذا المرء حتى يرعوى ويعمل لما بعد الموت .

كما يجعل البارودى للمنية يدا تحصد بها الأمم والشعوب فتحيلـــها إلى خبر بعد عيان ووجود ، فيقول : (٢)

أممٌ أخلدَتْ إلى الدهرِ حيناً ثم ضاعت فى لجةِ النسيانِ
حصدتها يدُ المنون فصَارَتْ خبراً فى الوجودِ بعد عَيَانِ

وواضح ما فى البيت الثانى من استعارة مكنية صور بها الشاعر مدى سطوة الموت وقوة تأثيره على كل كائن فى هذه الحياة .

– أما عن الألوان البديعية فقد جاءت فى شعر الزهد عند البـاوودى كثيرة ومتنوعة ، ولكنها مع كثرتها جاءت طبيعية غير متكلفة ولا ممقوتة ،

---

١ – ديوان البارودى ٣١٣ .
٢ – ديوان البارودى ٥٧٤ .

ولذا كان لها دورها فى تزيين المعنى وتحسينه .

- ويأتى الطباق فى مقدمة الألوان البديعية التى اهتم البارودى بإيرادها فى شعر الزهد . واستعان به فى عقد المقارنة بين الكثير من المعانى المتضادة التى حاول البارودى إبرازها فى شعره من مثل : الدنيا والآخرة ، والحياة والموت ، والثواب والعقاب ، والنفع والضر ، والخير والشر ، والسعادة والشقاء .... وغيرها مما يكثر حديث الزاهد عنه .

ومن ذلك ما جاء فى قول البارودى ملخصا حقيقة الدهر : [١]

والدهرُ أيامٌ تبيدُ صروفُها   وتشيدُ فهى هوادمٌ وبوانى

وأفاد الطباق عدم استقرار أيام الدهر ، وتقلبها بين تشييد وإبادة وهدم وبناء .

ومنها تلك الطباقات المتوالية التى صور البارودى من خلالها تقلب الدنيا وعدم بقائها على حال واحدة فقال : [٢]

ولقد تبيَّنْتُ الأمورَ بغيرها   وأتى علىَّ النقضُ والإبرامُ
فإذا السكونُ تحركٌ وإذا الخمو   د تلهُّبٌ وإذا السكونُ كلامُ

" ولعل السر فى جمال الطباق -- فضلا عن تثبيته المعنى فى النفس ،

---

١ - ديوان البارودى ٥٨٤ .
٢ - ديوان البارودى ٤٧٣ .

لأن الضد أقرب خطورا بالبال إذا ذكر ضده – أنـــه يصـــف الشـــىء المتحدث عنه إزاء الضدين المتقابلين " (١) . كما أن للطباق الأثر الكبـير فى إثارة الانفعالات المختلفة فى نفس القـــارئ أو الســـامع إزاء الأمـــور المتناقضة " (٢) . وقد ظهر هذا الأثر واضحا فى الأبيات السابقة . كمـــا يتضح هذا الأثر من الطباق فى قول البارودى عن الموت (٣) :

ليس يُبقِى على وليدٍ وكهلٍ   ولا سوقـــةٍ ولا سلطــــانِ

فقد صور الطباق فى هذا البيت معنى قضاء الموت على كل إنســـان وعدم تفرقته بين صغير وكبير ، ولا بين سوقة سلطان وأبان أن الكل أمـام الموت سواء .

– كما كثرت المقابلة فى شعر الزهد عند البارودى واســـتعان بهـــا على تجسيد الاختلاف بين أمور اليوم والأمس ، وبـــين أحـــوال الدنيـــا والآخرة وما يحدث فى كل منها من أمور متقابلة ينبغى على الإنســـان أن يتأملها جيدا حتى يتحقق له الفوز فى الدارين .

ومن أمثلة المقابلة فى شعر الزهد عند البارودى قوله : (٤)

---

١ – أسس النقد الأدبى عند العرب – د / أحمد أحمد بدوى – دار نهضة مصـــر – ١٩٩٤ م – ص ٤٤٧ .
٢ – المرجع السابق ٤٤٧ .
٣ – ديوان البارودى ٥٧٤ .
٤ – ديوان البارودى ٤٧٣ .

لا تركـنَنَّ إلى الـزمانِ فربما خدعت مخيلتُه الفؤادَ الغافلا
واصبِرْ على ما كان منه فكلَّما ذهبَ الغداةَ أتى العشيةَ قافلا

وقد صورت المقابلة هنا بين (ذهب الغداة) و (أتى العشية قافلا) سرعة تغير الزمان وسرعة تقلبه بأهله وعدم بقائه على حال واحدة . فمـا بين الغداة والعشى قد يحدث ما لا يتوقعه الإنسان . ولذا فيجدر بالمسـلم ألا يركن إليه ولا ينخدع بهدوئه وسكونه الذى لا يدوم .

ومن أمثلة المقابلة أيضا قول البارودى : (١)

فالدهرُ كالدولابِ يخفضُ عاليًا من غير ما قصدٍ ويرفعُ سافلا

وقد جاءت المقابلة هنا بين (يخفض عاليـا) و (يرفـع سـافلا) لتوضيح التشبيه فى قوله (فالدهر كالدولاب) وتوكيده ؛ فهى تشـرحه وتبين صدقه وواقعيته فى تصوير تقلب الدهر وعدم استقراره على حال .

ومنها أيضا قول البارودى عن حقيقة كثير مـن النـاس فى هـذه الدنيا: (٢)

حبُّ الحياةِ وبغضُ الموتِ أورثَهُمْ جبنَ الطباعِ وتصديقَ الأباطيلِ

فقد ساعدت المقابلة هنا فى الوقوف على سر ابتعاد كثير من النـاس

---

١ - ديوان البارودى ٤٤٤ .
٢ - ديوان البارودى ٤٤٤ .

عن الوفاء والصدق والأمانة ويكمن فى حبهم للحياة وبغضهم للموت .

وتكمن قيمة المقابلة – كما فى الطباق – فى الجمع بين أمور متضادة فى مقام واحد فيتمكن السامع أو القارئ من تصورها معا فى آن واحد .

– ومن الألوان البديعية التى وردت فى شعر الزهد عند البارودى : الجناس بنوعيه التام والناقص . " ولعل السر فى تأثير الجناس ما فيه من إيهام النفس أن الكلمة المكررة ذات معنى واحد ؛ فإذا أمعن المرء فيها النظر رأى الكلمتين معنيين مختلفين ؛ فيدفع ذلك إلى الإعجاب بالشاعر الذى اهتدى إلى هذا الاستخدام " [١] .

ومن الجناس فى شعر البارودى الزهدى ما جاء فى قوله " [٢] .

لا البازُ ينجو من الحِمَامِ ولا   يخلُصُ منه الحَمَامُ والخزب

فالحِمام – بكسر الحاء – : الموت ، وبفتحها هو الطائر المعروف . وقد جمع بينهما ليفيد أن الموت يقضى على كل حى فى هذه الحياة .

ومن الجناس الناقص ما جاء فى قول البارودى فى الحديث عن صفة من صفات الصديق الحق الذى ينبغى للمؤمن أن يتمسك بصداقته [٣] :

---

١ – أسس النقد الأدبى عند العرب ٤٧٥ .
٢ – ديوان البارودى ٧٧ .
٣ – ديوان البارودى ٤٤٦ .

إن رابك الدهرُ لم تفشل عزائمهُ | أو نابــك الـــهَمّ لم تفترْ وسائلُه

والجناس فى البيت بين (رابك ونابك) . والجمع بينهما أفاد صدق هذا الصديق فى صحبته لك فى كلتا الحالتين .

ومنه قول البارودى فى حديثه عن بعض من أبادهم الدهر (١) :

بل أينَ أصحابُ الوفـــو | دِ وأيـــن أربابُ الجلادِ ؟!
الطاعِمُــون الطاعِنُون | القائلـــون بكـــل نادى

والجناس بين (الطاعمون – والطاعنون) فى البيت الثانى . والجمع بينهما يفيد زيادة وصف هؤلاء القوم بالقوة والعظمة ، ومع ذلك لم يستطيعوا الوقوف أمام قوة الموت وجبروته .

– ومن الألوان البديعية التى وردت فى شعر الزهد عند البارودى : رد العجز على الصدر . وقد عرفه ابن رشيق فقال : " هو أن يرد أعجاز الكلام على صدوره فيدل بعضه على بعض ، ويسهل استخراج قوافى الشعر إذا كان كذلك وتقتضيها الصنعة "(٢) . وقد ورد فى قول البارودى فى حديثه عن الزمان وغدره (٣) :

---

١ – ديوان البارودى ١٨٨ .
٢ – العمدة – ٢ / ٣ .
٣ – ديوان البارودى ٤٤٣ .

كفلَ الشقاءَ لمن أناخَ بربعهِ   وكفى ابنَ آدم بالمصائب كافلا

وتكمن قيمة هذا المحسن بأنه – كما يقول ابن رشيق : – " يكسب البيت الذى يكون فيه أبهة ، ويكسوه رونقا وديباجة ، ويزيده مائية وطلاوة " (١) .

إلى غير ذلك من الألوان البديعية التى وردت فى شعر الزهد عند البارودى ، والتى زين بها أسلوبه وأوضح بها معانيه . " وإذا كان النقاد يرون فى هذه المحسنات البديعية جمالا موسيقيا تطرب له الأذن فإنهم يرون – إلا نقاد الصنعة والزخرف – أن تكون هذه المحسنات كالحلى ، يسوق منها القليل ، يأتى فى الكلام إذا استدعاه المعنى . لا أن يقتسر ويؤتى به موضوعا فى غير مكانه . فإن فعل الشاعر ذلك كان متكلفا لا يحمد شعره"(٢).

وقد نجح البارودى ووفق فى استخدامه هذه الألوان الاستخدام الأمثل فجاءت فى شعره طبيعية غير متكلفة ، فاستطاع من خلالها أن يحقق الهدف منها وهو تحسين المعنى وتزيينه ، وإضفاء لون جميل من الموسيقى على أبياته تزيد فى قوة التأثير فى متلقى هذا الشعر فيكون أسرع فى

١ – العمدة – ٢ / ٣ .
٢ – أسس النقد الأدبى عند العرب ٤٧٦ .

استجابته لها . وهذا لأن هذه المحسنات – كما ذكر النقـــاد – " حليـــة يروق الأذن منها ما جاء فى مكانه ، وكان قليلا لا يخفى به جلال المعـنى ، ولا يذهب بهدف الشاعر ، بل يخدم هذا الهدف ، ويزيد جمال المعـــنى ؛ وذلك حين يأتى به المعنى ، ويتطلبه إيضاح الفكرة " [١] . وهذا هو مـــا رأيناه فى المحسنات البديعية فى شعر الزهد عند البارودى .

د – لغة الزهد :

والظاهرة الرابعة من الظواهر الفنية فى شعر الزهد عند البـــارودى تتمثل فيما يلاحظه قارئ هذا الشعر من سهولة ألفاظه وبســـاطة لغتـــه وبعدها عن الغرابة أو الثقل ، وهذه سمة من سمات شعر الزهـــد فى كـــل العصور الأدبية .

فالزهد – كما يقول الشاعر العباسى أبو العتاهية : " ليـــس مـــن مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاب الغريب . هـــو مذهب أشغفُ الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحـــاب الرياء والعامة . وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه " [٢] .

ومعنى ذلك أن لغة الزهد ينبغى أن تتسم بسمات خاصة فتختلـــف

---

١ – المرجع السابق ٤٧٦ .

٢ – الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى – نشر دار الثقافة – بـيروت – ١٩٥٥ م – ١ / ٧٢ .

عن لغة غيره من الفنون الشعرية . ولقد حرص شعراء الزهد على توخي السهولة والوضوح فى ألفاظهم وأساليبهم ، فجاءت لغتهم بعيدة عن التكلف والتعقيد ، خالية من الوحشي والغريب ، لأنهم فى هذا الشعر يهدفون إلى دعوة الناس إلى قيمة دينية أو خلقية . وغاية قصدهم مواجهة المجون واللهو والفساد فى المجتمع ، وذلك عن طريق تزهيد الناس فى الدنيا، وترغيبهم فى الآخرة ، والدعوة إلى التحلي بالأخلاق والآداب الإسلامية فى أسلوب سهل يفهمه عامة الناس . يقول الدكتور على نجيب عطوى فى ذلك :

" فالشاعر فى قصيدته الزهدية ...... لا يريد بها مخاطبة الملوك وأصحاب الجاه والسلطان . فهؤلاء مشغولون عنه بأمور دنياهم . ولهذا فهم لن يكترثوا له ولا لقصائده ، ولن يجد منهم أى تشجيع أو عون . بل هو يريد مخاطبة العامة من الناس — أى الطبقة الشعبية . من هنا كان عليه أن يختار اللغة القريبة إلى أفهامهم . وذلك ليتمكن من التأثير على نفوسهم وقلوبهم ، ويثبت بينهم رسالته التى يؤمن بها .....

ومن هنا نجد أن لغة شعر الزهد تقتضى صفات معينة لكى تصل إلى درجة قوية من التأثير فى النفس والدخول إلى العقل والقلب بصورة مباشرة . وأولى هذه الصفات البساطة المتناهية ، والبعد عن الإغراب فى

الألفاظ وصعوبتها وثقلها على الأسماع ، وعدم استساغة الذهن للكثـــير منها بطريق مباشر " [1] .

فأهم وظيفة للفظ عند شعراء الزهد هو التعبـــير عـــن موقفـــهم ، وتوضيح أفكارهم ووعظ الآخرين ونصحهم وتوجيهـــهم ، وإقناعـــهم بوجهتهم الفكرية فى صورة جمالية ، لأنهم لا يتكســـبون بشـــعرهم ، ولا يهدفون من ورائه تحقيق ثروة أو جاه . ومن أجل ذلك رأوا أنه لا يصلـــح فى لغة الزهد غير ألفاظ لها سمات خاصة تساعد الشاعر الزاهد فى التعبـــير بسهولة عن أفكاره .

وقد اتسمت لغة شعر الز هد عند البارودى بهذه السمات كلـــها . فالنظرة السريعة فى هذا الشعر تبين مدى ما اتسمت به ألفاظ هذا الشـــعر عنده من بساطة وسهولة . مع اتصاف لغة الشعر عنده فى الموضوعـــات الأخرى بجزالة اللفظ والقوة الفنية فى تشكيل الصورة أو فى بناء العبـــارة. إلا أننا نلحظ تخليه عن كثير من هذه السمات فى شعر الزهد ، فكان فيـــه يلجأ إلى التعبير المألوف بألفاظ سهلة . " واعتماد البارودى على الكلمات السهلة جعله يختار منها الموحية المركزة ، وكل كلمة توحى بـــأكثر مـــن معنى ويتذكر فيها أكثر من جملة . وبذلك يفهم القارئ شعر البـــارودى

---

١ – شعر الزهد فى القرنين الثانى والثالث للهجرة ص ٣٢٤ .

بسهولة لوضوح المعنى وسلاسة كل فعل يستعمله ، أو لفظة يضعها فى البيت " [١] . كما أننا لا نقرأ فى هذا الشعر عند البارودى كلمة غريبة على الأسماع ، ولا متوعرة وحشية على الأفهام إلا نادرا ؛ مما يجعل معانيه قادرة على التغلغل إلى أعماق النفوس والتأثير القوى عليها . وكأنه يستجيب فى ذلك إلى ما طالب به أبو العتاهية شعراء الزهد فى كلامه السابق ، حينما أكد على أهمية سهولة الألفاظ فى شعر الزهد ، وأن تكون مما لا تخفى على جمهور الناس ، لأن هذا الشعر ليس من مذاهب الملوك ؛ وإنما من مذاهب العامة ، وأعجب الأشياء إلى هؤلاء الناس هو ما فهموه واستقر فى أذهانهم . اقرأ معى قول البارودى [٢] :

فتُبْ إلى اللهِ قبلَ مندمة ... تكثر فيها الهمومُ والكُرَبُ
واعتَدْ على الخير فالموفَّق مَنْ ... هذَّبه الاعتيادُ والدَّرَبُ
وجُدْ بما قد حوتْ يداك فما ... ينفعُ ثَمَّ اللجينُ والغَرَبُ
فإن للدهرِ لو فطنتَ له ... قوساً من الموت سهمها غَرَبُ

أو قوله [٣] :

وللموت أسبابٌ ينالُ بها الفتى ... فمن بات فى نجدٍ كمن بات فى وهدِ
وكل امرئٍ فى الناس لاقٍ حِمامَه ... فسيان ربُّ العيرِ والفرس النهدِ

١ - فصول فى الأدب الحديث والنقد - د / يوسف عز الدين ص ٧٧ .
٢ - ديوان البارودى ٧٩ .
٣ - ديوان البارودى ١٧٧ .

ولولا ارتياعُ النفسِ من صولةِ الرَّدى لما عف عن طيبِ النعيم أخو زُهْـــدِ
فدع ما مضى واصبر على حكمةِ القضـا فليس ينال المرءُ ما فـــاتَ بالجـــهدِ

وعند قراءتنا لهذه الأبيات نجد أن طابع السهولة يغلب عليها وعلى ألفاظها . حتى إننا لا نجد فيها لفظا غريبا نحتاج فى فهمه إلى الرجـــوع إلى معاجم اللغة العربية . بل جميعها كلمات مألوفة معروفة للسامع . ولذلـك يسهل حفظها ويسرع علوقها بالآذان . ومثلها كثير فى شعر البـاوودى فى هذا الباب تتسم كلها بسهولة الألفاظ وبساطتها وبعدها عـــن الغرابـــة والتوعر .

ومن الألفاظ التى يشوبها بعض الغموض — وهى قليلـــة للغايـــة فى شعر البارودى — لفظة (تبوخ) بمعنى (تسكن) فى قوله [١] :

تبوخُ بها الأنفاسُ وهى نسائمٌ وتعفو بها الأبدانُ وهى صعيدُ

والضمير فى (بها) يعود على الدنيا التى ورد ذكرهـــا فى البيـــت السابق على هذا البيت . ومنها لفظة (جاخرة) بمعنى (كريهة الرائحـة) فى قوله [٢] :

يمشى الفتى تيهًا وفى ثوبهِ من معطفَيْهِ جيفةٌ جاخِرة

١ – ديوان البارودى ١٨٩ .
٢ – ديوان البارودى ٢٦٣ .

ولفظة (قائف) — بمعنى متتبع للآثار عارف بها — فى قوله : [١]

لا تحسبنَّ الحدْسَ يدرك ما نأى   فما كلُّ حينٍ قائفِ الحدس يصدقُ

" وسهولة الألفاظ المفردة وبعدها عن الغرابة تقودنا إلى ظاهرة أخرى فى لغة الشعر هى بساطة التركيب اللغوى . فسهولة الألفاظ لا تكفى وحدها للتأثير فى النفس والوصول مباشرة إلى المعنى . ولكن صياغتها البسيطة البعيدة عن التعقيد بالمعاظلة والتقديم والتأخير وطول الجمل الاعتراضية يجعل التعبير عن المعنى يصل إلى القلب من أقرب سبيل"[٢].

وقد جاءت تراكيب شعر البارودى فى فن الزهد غاية فى البساطة والسهولة مما يجعل معانيه واضحة تصل إلى العقول والقلوب فى أقصر وقت . وهذا يتضح من قراءتنا لأى قصيدة أو مقطوعة زهدية فى ديوان البارودى .

كما اتسمت لغة الزهد عند البارودى فى بعض الأحيان بالرقة وعدم الجزالة التى يصوغ بها شعره فى الفنون الأخرى . ومن ذلك قوله:[٣]

---

١ – الديوان ٣٨٦ .
٢ – شعر الزهد فى القرنين الثانى والثالث للهجرة ٣٢٦ .
٣ – الديوان ١٨٨ .

لا عيــش إلا للنفــاد   فــاحبُ حياتك أو فعــادِ
وابخَـل بنفسـك أو فجُــدْ   كــلُّ الأمــور إلى فســادِ
أيـن الألى شـقوا البحــو   ر وشــيدوا ذات العمــاد
ملكــوا التــهائم والنجــا   ئـد والحواضر والبــوادى

ومن الملاحظ أيضا أن البارودى كان ينتخب معظم مفردات وتراكيب شعره فى الزهد من القاموس الإسلامى ، فكثرت فى شعره ألفاظ الجنة والنار ، والموت والقبر ، والتقوى والفساد ، والنعيم والسعادة ، والثواب والعقاب ، والفناء والمصير ، والحساب ، والدار الآخرة ، والحياة الدنيا ، والتوبة والاستغفار ، والندم والذنب ، والتسبيح، والخير والهداية ، والصبر والقناعة ، والصدق والحق إلى آخر تلك الألفاظ التى يشع منها نور الإسلام وروحانيته ، والتى كان يختار منها ما يلائم المعنى الذى يتحدث عنه ، ويتناسب مع موضوع الزهد الذى يقصد إلى التعبير عنه .

واتصاف لغة الزهد عند البارودى بهذه السمات كلها جعلها لغة مألوفة لدى الناس قريبة من نفوس القراء والمتلقين لهذا الشعر .

- هذا وقد كان البارودى يلجأ إلى وسائل متعددة لتحقيق الألفة بين القارئ ولغة شعره فى هذا الباب . ومن هذه الوسائل :

١ – النداء الذى يساعد الشاعر على إخراج ما فى داخلـــه مــن أحاسيس ومشاعر غير متناهية ، كما فى قوله فى الوعظ : (١)

يا أيها السَّرِفُ المدلُّ بنفسه   كسفينةٍ فى لج بحر ما خِرَة
أتظنَّ أن الفخرَ ثوبٌ معلم   تزهو بلبسته وقدرٌ باخِرة

وكقوله فى مناجاة ربه : (٢)

يـــاربِّ إنك ذو مَـــــنٍّ ومغفرةٍ   فاستُرْ بعفوك زلاَّتى وعصيانى
ولا تكِلْنِى إلى مـــا كانَ من عَمَلى   فإنـــــه سَبَبٌ يفضِى لحرمانى

فالنداء فى مثل هذه الأبيات يساعد الشاعر على إخراج كـــل مـــا يحس به تجاه المنادى عن طريق مد الصوت بحرف النداء (يــــا) الـــذى حرص الشاعر على استخدامه دون غيره من حروف المد .

٢ – ومن الوسائل التى يلجأ إليها البارودى لتحقيق هذه الألفـــــة استخدام أسلوب الاستفهام . وكان غالبا ما يخرج الاســـــتفهام فى هـــذه الأشعار عن حقيقته إلى الاستفهام التعجبى ، أو الإنكارى أو التوبيخـــى ، أو يريد به النفى . إذ يراه الشاعر حينئذ أبلغ فى ردع النفس وزجرهــــا وحثها على سلوك طريق الهدى والصواب ، كما يجد فيه تقوية للمعــــنى

---

١ – ديوان البارودى ٢٦٢ .
٢ – ديوان البارودى ٥٨٦ .

وتقريرا له وتأكيدا . ومن ذلك قول البارودى : (١)

يا قلبُ مالك لا تفيقُ من الهوى ؟ يا قلبُ مالك ؟
أو ما بَدَا لك أن تعودَ عن الصِّبا ؟ أو ما بدالك ؟
أم خلتَ أن يد الزمانِ قصيرةٌ عن أن تنــالك ؟

فالغرض من الاستفهام فى هذه الأبيات قد يراد به الإنكار . فـــهو ينكر على نفسه الميل عن الهوى والبعد عن الهدى ، والركون إلى الدعـــة والسكون .

ومنه قوله : (٢)

متى أنتَ عن أحموقةِ الغيِّ نازعُ ؟ وفى الشيبِ للنفسِ الأبيَّةِ وازعُ

فالغرض من الاستفهام هنا التوبيخ والتقريع الذى قصد به زجر هذا العاصى الذى لا يرتدع ولا يترك ما فيه من لهو وعصيان رغـــم ظـــهور الشيب فى رأسه وإنذاره بقرب أجله ودنو الموت منه .

ومنه قوله : (٣)

أىُّ شيءٍ يبقَى على الحدثانِ والــمنايا خصيمةُ الإنسانِ ؟

---

١ - ديوان البارودى ٣٩٧ .
٢ - ديوان البارودى ٣١٣ .
٣ - ديوان البارودى ٥٧٣ .

فالغرض من الاستفهام هنا النفى الذى يهدف الشاعر من ورائه توكيد نفى بقاء شيء على حاله أو خلوده فى هذه الحياة لأن المنايا موكلة بالقضاء على كل حي .

٣ - كما قد يلجأ البارودى إلى أسلوب النهى لتحقيق الألفة بين المتلقى وشعره . ومن أمثلة ذلك قوله : (١)

فلا تحسبنَّ الدهرَ لعبةَ هازلٍ   فما هو إلا صرفُهُ والفجائعُ

وقوله : (٢)

فلا تبتئسْ بالأمرِ تخشَى وقوعَه   فقد يأمن الإنسانُ من حيث يفرُقُ

٤ - كما استعان بأسلوب التعجب فى بعض الأحيان لتحقيق هذه الألفة . ومن أمثلة ذلك قوله : (٣)

ما أطيبَ العيشَ لولا أنَّه فانٍ   تبلى النفوسُ ولا يبلَى الجديدان

وقوله : (٤)

فيالَكَ من زمانٍ عشتُ فيه   نديمَ الراحِ والهيفِ الكعابِ

---

١ - ديوان البارودى٣١٤ .
٢ - ديوان البارودى ٣٨٧ .
٣ - ديوان البارودى٥٨٤ .
٤ - ديوان البارودى ٥٣ .

ولاشك أن مثل هذه الأساليب الإنشائية لها أثرها فى جمال الأسلوب وقوة لغة الشعر ، حيث يكون لها دورها فى تنبيه المتلقى وتطلعه إلى مـــــا يلقى على مسامعه من شعر فيقوى تأثره بما فيه من معنى .

- كما وشح البارودى لغة الزهد فى شعره بإيراد الكثير من الحكـم البارعة التى كان يهدف من ورائها تلخيص المعنى الذى يتحدث عنـــه فى صورة موجزة يسهل حفظها واستيعابها .

ومن أبيات الحكمة فى شعر الزهد عند البارودى قوله : (١)

إنـــما هذه الحياةُ غرورٌ   تنقضى بالشقاءِ والحرمانِ

وهى حكمة تلخص لنا أمر هذه الحياة الدنيا فى جملة قصيرة : (هذه الحياة غرور) ولا ننسى أن الشاعر عبر عن هذا المعنى فى أسلوب القصـــر الذى يفيد أن الحياة الدنيا لا تتعدى عن كونها غرورا لا ثبـــات لهـــا ولا دوام . وهو معنى مأخوذ من مثل قوله - تعالى - " وما الحياةُ الدنيـــا إلا متاعُ الغرور " (٢) مع الاختلاف فى طريقة القصر .

ومنها قوله مفصحا عن فناء كل مخلوق : (٣)

١ - ديوان البارودى ٥٧٤ .
٢ - من الآية رقم ٢٠ من سورة الحديد .
٣ - ديوان البارودى ١٨٩ .

بلينا وسربالُ الزمانِ جديـــدٌ وهل لامريءٍ فى العالمين خلودُ ؟

وأبان البيت عن قصر مدة بقاء الإنسان فى هذه الحياة . وقد أكـــد الشاعر المعنى بالعبارة فى الشطر الثانى الذى جاء فى أسلوب الاســـتفهام المراد به النفى زيادة فى التأكيد وتقوية المعنى .

ومنها قوله متحدثا عن طمع الإنسان فى هذه الحياة على الرغم مـــن جهله بمصيره فيها : (١)

يودُّ الفتى أن يجمعَ الأرضَ كلَّها إليـــه ولمَّا يدرِ ما اللهُ صانعُ

وقد زين البارودى بيته بهذه الكناية التى أبانت عن شدة طمع هـــذا الإنسان فى الحياة ؛ حتى إنه ليتمنى أن يستحوذ على ما فى الأرض كلـــها لنفسه . رغم جهله بما سيحدث فى الغد .

ومنها قوله يتحدث عن سرعة انقضاء الحياة وانتهائها : (٢)

فيا ربَّما باتَ الفتى وهو آمنٌ وأصبح قد سُدَّتْ عليه المطالعُ

والبارودى هنا يؤكد على عدم استقرار الحياة على حال . فما بـــين عشية وضحاها يغير الله الأمور من حال إلى حال .

ومن هذا الباب قول البارودى : (٣)

١ - ديوان البارودى ٣١٤ .
٢ - ديوان البارودى ٣١٤ .
٣ - ديوان البارودى ٤٤٣ .

قد يجبنُ الأعزلُ وهو الفتى   ويشجعُ النكسُ إذا ما اعتقل

والبيت يبين قيمة الاستعداد للأمور وأهميته فى تحقيق النصر . فلابد من اقتران الشجاعة بالاستعداد والتأهب لخوض الصعاب من الأمور . فلا يكفى أحدهما فى التغلب عليها .

وكثيرا ما يأتى البارودى فى ثنايا شعره فى الزهد بالحكمة التى تدعو إلى التفكير فى الوجود والموت ، وفى الكون من حولنا . ومن ذلك قوله:[1]

تأمَّلْ إلى الدنيا بعينِ بصيرةٍ   لعلك ترضَى بالقليل من القَسْمِ

وهو فى هذا يبين أن الإنسان لو تدبر أمور هذه الحياة بعين بصيرة وتعرف على حقيقتها لأراح نفسه ، واكتفى من متاعها بالقليل ، ورضى بما قسمه الله له فيها .

وقوله : [2]

تأمَّلْ قليلاً يا ابنَ ودِّى هل ترى   على صفحاتِ الأرضِ غيرَ معالِمِ؟

والبيت يؤكد على عدم بقاء الإنسان فى الحياة أكثر من أمد محدود، وليس هناك من هو مخلد فيها ؛ فقد عاش على الأرض العديد من الأمم

---

١ - ديوان البارودى ٥٠٦ .

٢ - ديوان البارودى ٥٠٨ .

قبلنا ، كلهم قد بادوا وهلكوا ولم يتركوا وراءهم إلا معـــالم تنبـــئ عـــن أخبارهم.

ولا ننسى أن البارودى قد حلى بيته بعبارة (يا ابن ودى) الـــتى تعبر عن صدقه وأمانته فى حديثه مع من يخاطبه ، ثم بأسلوب الاســـتفهام المراد به النفى والذى يؤكد المعنى ويقويه .

ومن ذلك أيضا قوله : (١)

إذا لم يكن بين الحياةِ وضدِّها   سوى مهلةٍ فاللحدُ أشبهُ بالمهدِ

وهو أيضا يؤكد على قصر مدة وجود الإنســـان فى هـــذه الحيـــاة وسرعان ما يفارقها ويفارق ما شيده فيها .

إلى غير ذلك من الحكم الكثيرة التى يطلع عليها من يقـــرأ شـــعر الزهد فى ديوان البارودى . وقد جاء بها فى معان مختلفة ، مزينا بهـــا لغـــة الشعر عنده ، وملخصا بكل منها موقفا يتناسب مع جو القصيدة الـــتى تأتى الحكمة فى ثناياها .

وغير ذلك من الوسائل التى لجأ إليها البارودى لتحسين لغة شـــعره وتحقيق الألفة بينها وبين المتلقى .

---

١ - ديوان البارودى ١٧٧ .

هـ - براعة التصوير :

والظاهرة الخامسة من الظواهر الفنية فى شعر الزهد عند البـارودى هي البراعة فى التصوير ؛ فقد اتسمت الصورة الفنية فى شعر الزهد عنـده بالبساطة والسهولة والوضوح فى أغلب الأحيان ؛ وذلك لتحقيق التـلاؤم بينها وبين لغة هذا الشعر ومعانيه . ومع بساطة هذه الصور وسـهولتها ووضوحها فإنها تتسم بكثير من مظاهر العمق والابتكار ، كمـا جـاءت غنية بعناصر التحليل والإبداع الفنى .

ومن صور البارودى الرائعة فى زهده قوله مصورا حـال الدهـر وماهيته وسرعة تقلبه بأهله : (١)

وما الدهـرُ إلا دفترٌ فى خلالِهِ تصـاويرُ لم يُعْهَـد لهنَّ مثالُ
ففى صفحةٍ منه زمانٌ قد انقضى وفى وجهِ أخرى دولةٌ ورجالُ

فقوة الخيال لدى البارودى جعلته يصور - هنا - الدهر فى صـورة دفتر متعدد الصفحات ، ولكنه مليئ بالتصـاوير والمنـاظر. والمقلـب لصفحات هذا الدفتر يروعه ما فيها من صور ومناظر . ففى صفحة منـه يرى صورة لزمان قد انقضى وأخنى فيه الدهر على أهله . وفى صفحـة أخرى يرى دولة ما زالت قوية تغافل عنها الدهر إلى حين . وفى صفحـة

١ - ديوان البارودى ٤٤٦ .

ثالثة يرى صورة ثالثة ، ورابعة ... وكلها تدل على تقلب الدهر وتغيره وعدم بقائه على حال .

وهذه صورة أخرى عبر بها البارودى عن سرعة تقلب الدهر بأهله وعدم استقراره على حال فيقول : (١)

فالدهرُ كالدُّولاب يخفِضُ عالياً من غير ما قصدٍ ويرفَعُ سافلا

فقد صور البارودى فى هذا البيت الدهر بالدولاب الذى لا يتوقف عن الدوران ، وكلما دار انخفض من بعاليه ، وارتفع من كان سافلا ، وبلا حساب ولا نظام.وهكذا الدهر دائم التقلب والدوران بأهله ، وفى كل دورة من دوراته يرفع أناسا ويخفض آخرين ، وبدون نظام ولا سابق إنذار . وهى صورة بديعة رسمها البارودى بخياله ، وأبرز بها الشيء المعنوى المعقول فى صورة محسوسة مشاهدة للعيان حتى يرتدع الإنسان المخدوع ، ولا يغتر بإقبال الحياة عليه ؛ فإقبالها عليه لن يدوم وسرعان ما تولى وجهها عنه وتقبل على غيره ... وهكذا .

واقرأ معى قوله (٢)

وما هذه الأجسامُ إلا هياكلٌ مصوَّرةٌ فيها النفوسُ ودائعُ

---

١ - ديوان البارودى ٤٤٤ .
٢ - الديوان ٣١٥ .

فقد صور البارودى فى هذا البيت أجسام البشر بالأوعية التى خلقها الله ﷻ وأودع فيها النفوس والأرواح إلى أجل مسمى حتى إذا أراد - سبحانه - استردادها لم يملك إنسان أن يمتنع أو يعترض . فهو خالقها وهى رهن لمشيئته تعالى .

وتأمل معى قوله : [١]

وما الدهرُ إلا مستعِدٌّ لوثبةٍ   فحذركَ منه فهو غضبانُ مطرِقُ

فقد صور الدهر بصورة حيوان مفترس يفترس الناس بمخالبه وأنيابه. وهو دائما مستعد للوثوب على من يطمئن إليه وينخدع به . ولم يكتف الشاعر بهذا ولكنه صوره بصورة الحيوان المفترس الغضبان الذى إذا هجم على فريسته أوقع بها ولم تتمكن من النجاة من بين أنيابه ومخالبه . ولذا ينصح البارودى مخاطبه بأن يحذر هذا الدهر وبغتاته .

إلى غير ذلك من الصور الكثيرة المعبرة التى تؤثر فى قارئ شعر البارودى أو سماعه . وصدق الدكتور شوقى ضيف حينما قال معبرا عن براعة البارودى فى تصاويره : [٢]

" لا يروعنا البارودى بصدقه فى وصف أحاسيسه وما مر به من

---

١ - الديوان ٣٨٧ .

٢ - البارودى رائد الشعر الحديث ١٨٨ .

أحداث الحياة ، وأحاط به من واقعها فى بيئته وغير بيئته فحسب . بل يروعنا أيضا بملكته الخيالية التى أتاحت له تصوير المشاهد الكبيرة تصويرا ينبض بالحركة والحيوية الدافقة . ولا نقصد المشاهد الحسية وحدها بل نقصد المشاهد النفسية ؛ إذ استطاع دائما أن يرسم ما يجرى من حوله وفى نفسه رسما تخطيطيا دقيقا " .

كما كان الدكتور على الحديدى صادقا كل الصدق وهو يسجل رأيه فى دقة التصوير وبراعته فى شعر البارودى بجانب بعض سماته الأخرى فيقول : [1]

" لم تكن جزالة العبارة ، وبهجة الديباجة ، ورصانة التراكيب هى كل الجديد الذى جاء به البارودى . بل من الجديد الذى شد الأسماع لشعره ودعا إلى الإعجاب به معالجته الأدب التصويرى . فعدسة عينيه اللاقطة تصور الواقع فى بساطة وسلاسة وقوة تحس معها بإرسال النفس على سجيتها ؛ لأنه لا يتعمق ولا يعمد إلى التعقيد أو الغموض ، ولا يتكلف الاستعارات أو السير فى أخاديد البديع ودروب الصناعة . وإنما يرسل نفسه على سجيتها إرسالا فيصور ما هو أمامه ويعبر عن عواطفه كما يريد أن يعبر الناس فلا يستطيعون . واعتماد البارودى على حواسه

---

١ - محمود سامى البارودى شاعر النهضة ص ٣٧٥ .

فى شعره صفة بارزة فيه وخاصة المنظور الذى ظل يزداد وضوحا مع الأيام وتزداد فيه الحركة والحياة بنوع خاص . وهو حين يسجل الصور بألفاظه الموسيقية لم يكن يسجلها في صمتها وسكونها على عادة عشاق الطبيعة الصامتة ، بل في نشاطها وتحركها . حتى يخيل لقارئ شعره وسامعه أن الحياة تنبض في كل جزء تقع عليه العين وتحيط به الباصرة " .

و – روعة الموسيقى :

من المعروف أن للموسيقى دورا بارزا في عملية الإبداع الشعري ، إذ فيها للشاعر متنفس كبير لإخراج شحنة من الانفعالات ، ودفقات من التجربة ، لا تتمكن الألفاظ المحسوسة ، ولا المعاني المجردة من الإفصاح عن خباياها . ومن هذا المنطلق يمثل الإبداع الموسيقي في شعر الشاعر – بما يحمله من ترنيمات خاصة بتفعيلات الوزن ، أو اتحاد القوافي وتناغمها، وبما تعبر عنه موسيقى الحروف المتناسقة غير المتنافرة – أهمية كبيرة في اكتمال روعة الشعر وقوة تأثيره في المتلقى .

وقد عرف البارودي بروعة موسيقاه . " وهي روعة ترد إلى احتفاظه بخصائص العبقرية الموسيقية لشعرنا العربي في آياته القديمة الخالدة التي حفرت ألحانها في ذاكرة الزمن " [1] . واستطاع البارودي أن يطوع

---

١ – البارودي رائد الشعر الحديث – د / شوقي ضيف ٢٠٦ .

هذه الموسيقى الموروثة لتحمل في صدق ودقة تصوير أحاسيسه ومشاعره الذاتية والقومية بكل دقائقها .

وإذا كان للموسيقى عامة الأثر العظيم في العمل الأدبي فإن بين الشاعر وما يؤثره من وزن لعمله ، ثم بين الوزن ذاته والغرض الشعري علاقات يتحتم على الشاعر إدراك أبعادها وكشف طبيعتها وسبر أغوارها.

ومن قراءتنا لشعر الزهد عند البارودي نلحظ أنه نظم شعره في الزهد على كل نوع من أنواع بحور الشعر العربي العروضية الطويلة منها والقصيرة ، والتامة والمجزوءة ، والشائعة الاستعمال منها والقليلة الاستعمال . وإن كنا نلحظ أنه أكثر من الإنشاد على البحور الطويلة ، وذلك لأن موسيقاها ممتدة النغمات تتناسب مع الموسيقى الداخلية النابعة من وجدانه ، والتي تمكنه من حشد كثير من المعاني والأفكار فتحدث في سامعيها أثرا جميلا يصل إلى العقول والقلوب من أقصر طريق . وهو بذلك يوائم بين موضوع شعر الزهد وطبيعته ، وبين الوزن العروضي الذي يعبر من خلاله عن معاني وأفكار هذا الفن . وفي هذا المقام يذكر الدكتور محمد غنيمي هلال – مع إيمانه بأن القدماء من العرب لم يتخذوا لكل موضوع وزنا خاصا أو بحرا خاصا من بحور الشعر القديمة – بأن

الشعراء عادة ما يلجأون إلى البحور ذات التفاعيل الكثيرة في حالات الحزن والشجن ؛ وذلك لاتساع تفاعيل تلك الأبحر لحديث النفس وما ينتابها من انفعالات وأحزان . ولاتساع مقاطعها وكلماتها لأنات الشاعر وشكواه . أما مجيء بعض هذه الانفعالات والآهات على الأبحر المجزوءة أو القليلة التفاعيل كالخفيف والرمل والمتقارب ونحوها فمعلل بكونها نتيجة انفعال أو اضطراب مفاجئ تتوالى إثره أنفاس الشاعر ، فلا يجد للتعبير عنها أصلح من الأبحر المجزوءة أو القصيرة (١).

وهذا بعينه ما نلحظه في شعر الزهد عند البارودي ؛ فقد جاء الكثير منه على الأوزان التامة الطويلة الموسيقى الكثيرة التفاعيل لتساعده على إخراج ما بداخله من انفعالات وأحزان . ووجدناه في أحيان أخرى يلجأ إلى الأوزان القصيرة أو المجزوءة التي تدل على تعرضه لانفعال مفاجئ توالت إثره أنفاسه سريعة متلاحقة فاختار للتعبير عنها تلك الأوزان . وهذا ما يجعلنا نحكم عليه بأنه كان في شعره في هذا الباب ملائما بين انفعالاته وأحاسيسه وبين الوزن العروضي الذي صاغ عليه وعبر من خلاله عن هذه الانفعالات والأحاسيس .

كما نلحظ أن البارودي قد استخدم بعض الألوان البديعية

---

١ - راجع : النقد الأدبي الحديث - د / محمد غنيمي هلال - دار الثقافة - بيروت - طبعة عام ١٩٧٣ - ص ٤٦٨ .

استخداما بارعا ليكمل بها حسن تأثير الموسيقى الداخلية في متلقى شعره . ولا سيما أنه — كما عرفنا فيما سبق — كان محسنا في استخدامها . ومجيدا في وضعها بمكانها فلم يكن مكثرا منها ، أو مستكرها لشيء منها دون أن يتطلبه المعنى . لذا جاءت موسيقاه البديعية سهلة غير معقدة لا باردة ولا متكلفة غير مفسدة لجرس الأبيات اللفظي .

فإذا قرأنا — على سبيل المثال قول البارودي :[1]

لا البازُ ينجو من الحِمام ولا   يخلص منه الحَمَام والخربُ

لوجدنا أنه بمقدار ما بين (الحِمام والحَمام) من تجانس لفظي واتفاق حرفي بقدر ما بينهما من بعد معنوي . فالحِمام — بكسر الحاء — يثير في نفوسنا نوعا من الرهبة والخوف والوجل . وخاصة حينما نقرأ أن الموت لا ينجو منه أحد . أما الحَمَام — بفتح الحاء — فيثير في النفوس لونا من الأمل والسلام والطمأنينة والتطلع إلى الحياة الخالية من الآلام والشقاء . ولكن الشاعر جمع بينهما ليبين أن الموت يقضي على كل شيء حتى ولو كان هذا الشيء عنوان الأمل والسلام والرغبة في الحياة دون منغصات وآلام .

فموسيقى التجانس بين اللفظين حاضرة ، وجمال المعنى متحقق غير

---

١ — ديوان البارودى ٧٧.

غائب وتمام المعنى وصلاحيته وصحته لا تقل أهمية وشأنا عن أهمية الجرس الموسيقي والجمال اللفظي .

وإذا قرأنا قول البارودي (١) :

لك الحمدُ إن الخيرَ منك وإنني ... لصُنعِك يارَبَّ السماواتِ شاكرُ
فليس لمن تُقصِيه في الناس نافعٌ ... وليس لمن تدنيه في الناسِ ضائرُ
ولا لامرئٍ ألهمتَه الرشدَ خاذلٌ ... ولا لامرئٍ أوردتَه الغيَّ ناصرُ

فللمقابلة في البيتين الثاني والثالث دور لا يخفى في حسن موسيقى الأبيات وجمالها ، فضلا عن توكيد المعنى وتقويته مع مزيد من الظهور والبيان حين ترى الجمع بين (ليس لمن تقصيه نافع) و (ليس لمن تدنيه ضائر) فى البيت الثانى ، والجمع بين (ألهمته الرشد خاذل) و (أوردته الغي ناصر) . وهكذا بقية ما نراه في شعر الزهد عند البارودي من محسنات بديعية . فلها كلها في شعره نوع من الجمال البديعي المستحسن، والترنيم الموسيقي المستعذب الذي تسعد به نفس كل متلق ، ويخفق لها قلب كل قارئ ، وتطرب لها أذن كل سامع .

أما عن جمال الموسيقى الناتجة عن الجرس الصوتي فقد كان البارودي موفقا إلى حد كبير في اختيار أعمق الألفاظ دلالة معنوية ، وأرق الحروف

---

١ – ديوان البارودي ٢٦٤.

رنينا صوتيا موسيقيا . فكان يختار من الألفاظ والحروف ما يحقق جرسا صوتيا يعطي إيحاءً ظاهرا ودلالة متميزة ، ونجد هذا الجرس الصوتي العذب متحققا بجلاء من خلال توالي حروف المد وحركاته المنظمة في قول البارودي على سبيل المثال [1] :

أين الأُلى شقُّوا البحو ... رَ وشيَّدوا ذاتَ العماد
ملكوا التهائمَ والنجا ... ئِدَ والحواضرَ والبوادي
بل أين أصحابُ الوفو ... دِ ؟ وأين أربابُ الجلادِ ؟
الطاعِمُون الطاعِنُو ... ن القائلونَ بكل نادي
الكاشفُون الضرَّ والـ ... ـعافون عن ذنب العبادِ

فلحروف المد وما صاحبها من محسنات بديعية واستفهامات مجازية دورها الكبير في إحداث نوع من الموسيقى العذبة الهادئة في نغماتها الصاخبة في أثرها وانفعال النفس بها . فبحروف المد واللين وضوح وبهاء وبروز في النطق ، وظهور في السمع . وفي ذلك الوضوح دلالة معنوية على ما بهذه الحروف من صفة صوتية خاصة ناتجة عن اتساع مخرجها لهواء الصوت ؛ مما يساعد الشاعر على التعبير بصوت أقوى ونغمة أطول عن المعاني التي تضمنتها الأبيات . مما يؤدي إلى قوة الأثر وشدة التأثير .

وهذا الذي لحظناه في الأبيات السابقة نحس بمثله في قول

---

١ - ديوان البارودي ١٨٨ .

البارودي[1]:

أهتكـــم الدنيا عن الآخِرة ... وهي من الجهل بكم ساخِرة
وغرّكم منها - وأنتم بكم ... جوعٌ إليها - قِدرُها الباخرة
يمشي الفـــتى تيهاً وفي ثوبه ... من معطفيـــه جيفـــةٌ جاخِرة

فلاختيار الكلمات ذات حروف المد ما يحقق هـــذا النـــوع مـــن الموسيقى المؤثرة في نفس المتلقي ؛ خاصة حينما تتعانق هذه الموسيقى مـــع براعة التصوير التي تضمنتها الأبيات . فإن حروف المد - وخاصة الألـــف - من أوسع الحروف مخرجا وأطولها امتدادا بالصوت، وأوسعها انتشـــارا وشغلا للمساحة الزمنية ، وهذا ما يجعلنا نشعر بشيء من التعانق والتآلف بين كل من الدلالتين الصوتية والمعنوية بالكلمة الممـــدودة في الأبيـــات ، وسرعان ما تنتقل تلك الدلالة إلى المعنى العام للأبيات مؤكـــدة إيـــاه ، وموثقة لهدف الشاعر منها .

ولولا ضيق المقام لاستوفيت شرحا لمزيد من النماذج والأبيات غـــير أن فيما ذكرته كفاية ، وفيها الدليل على توفيق البارودي في شعره في هذا الفن .

وبكل هذه الوسائل وغيرها كان يهدف البارودي إلى إحداث التأثير

---

١ - ديوان البارودي ٢٦٣ .

الوجداني في القارئ والسامع . وهذه الوسائل من الضروري توافرهـــا في فن شعبي مثل فن الزهد . " لأن هذا الشعر يعتمد على التأثير والنفـــاذ . ولن يتم له ذلك إلا بقرب لغته وألفتها . وباعتماده على التلوين الصـــوتي المؤثر والتصوير الفني الدقيق . وهذه الجوانب الفنية تستلزم صنعة متأنية ، إلى جانب صدق الشعور ، وقوة العاطفة وراء هذا الشعر " (١) .

وبعد : فهذه أهم الظواهر الفنية البارزة في شعر البارودي في هـــذا الباب ختمت بها حديثي عن شعر الزهد الذي يعد من الموضوعات المهمـــة في شعر البارودي . والذي كانت له دوافعه ومعانيه وسماته الخاصة . والتي أرجو أن أكون قد قمت بواجب توضيحها وبيانها وأهم الآراء حولها .

---

١ – شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة ص ٣٣٩ .

تقويم :

بعد أن عرفنا – من خلال هذا البحث – شيئا عن حياة البارودي ، وتعرفنا على معنى الزهد ، والفرق بينه وبين التصوف في المفهوم الإسلامي نستطيع أن نقول : إن البارودي قد لبى بشعره في الزهد نداء الإسـلام في نفسه ، وتوجه إلى الله – سبحانه وتعالى – في شدته بعد أن تبدلت حياتـه وسارت في اتجاه آخر بعيدا عن المناصب وزخرفها وبهرجتـها، وتوالـت عليه محن الحياة ومصائبها فأمدنا بهذا الكم الكبير من هذا الشعر الزهـدي والذي عرفنا أنه يزيد في ديوان البارودي عن ثلاثين قصيدة ومقطوعة .

ومن خلال قراءتنا لشعر الزهد عند البارودي وما كتب في الفصـل الثاني من هذا البحث عن معاني هذا الشعر وأفكاره عند البارودي نعرف أن الشاعر قد تناول في هذا الفن معظم الأفكار والمعاني الـتي وردت في شعر الزهد عند شعراء العصور الأدبية السابقة على العصر الذي وجد فيه البارودي ، وإن كانت هناك بعض المعاني التي قل تناوله لها . ومن أهـم هذه المعاني القول في الرزق وتقدير الله له حيث تناول هذا المعنى في شـعره مرة أو مرتين فقط وفي أبيات قليلة ، ولم يكرر الكلام فيه كثيرا كما فعـل مع كثير من المعاني .

كما عرفنا أيضا من خلال هذا البحث صدق البارودي في زهـده

وأن كثيرا من شعره في هذا الباب يمثل صورة صادقة لعزوفه عن الحياة وعدم حرصه عليها وعلى متاعها، بل وعن كرهه لها وضيقه بها خاصة في الفترة الأخيرة من حياته . تلك الفترة التي نفى فيها وأبعد عن أهله ووطنه وناله خلالها الكثير من الشدائد والنكبات مما جعله يلجأ إلى شعره يعبر به عن أحاسيسه وخلجات نفسه وانفعالاتها ومشاعرها .

كما عرفنا أن شعر الزهد عند البارودي يتسم بكثير من السمات والظواهر الفنية . وهي ظواهر وسمات توافرت في معظم فنون شعره الأخرى . وكان من أبرز هذه السمات والظواهر : السهولة والوضوح ، والدقة في التصوير ، والبعد عن الصور البديعية المتكلفة ، بجانب تأثره بالقرآن الكريم وبالمعاني الإسلامية .

وهكذا أمدنا البارودي بلون من ألوان الأدب جاء به مليئا بالقيم الفنية وأضاف إلى موضوعاته الشعرية موضوعا فيه يسمو بنفسه ويرتفع بها عن الدنايا ويساعد على تطهيرها من الشرور والآثام . ولا شك أن ما تعرض له البارودي من شدائد ونكبات في الفترة الأخيرة من حياته كان من أهم الدوافع التي دفعته إلى إنشاد الكثير من هذا الشعر الذي يعد بحق تيارا فنيا جديرا بالبحث ولدراسة .

مراجع البحث

- القرآن الكريم .

١ - الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر . د / عبد القادر القط - مكتبة الشباب بالقاهرة - ١٩٨٦ م .

٢ - أدب الزهد في العصر العباسي . د / عبد الستار السيد متولي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٤ م .

٣ - أسس النقد الأدبي عند العرب . د / أحمد أحمد بدوي - دار نهضة مصر للطبع والنشر - ١٩٩٤ م .

٤ - الأعلام . خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - الطبعة الخامسة - ١٩٨٠ م .

٥ - الأغاني - المجلد الأول . أبو الفرج الأصفهاني . نشر دار الثقافة - بيروت - ١٩٥٥ م .

٦ - الأندية الأدبية في العصر العباسي في العراق حتى نهاية القرن الثالث الهجري . د / علي محمد هاشم - دار الآفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٢ م .

٧ – البارودي رائد الشعر الحديث . د / شوقي ضيف – دار المعارف – الطبعة الثالثة – ١٩٧٧ م .

٨ – تاريخ بغداد . الخطيب البغدادي – دار الكتب العلمية – بيروت – بدون تأريخ .

٩ – دائرة المعارف الإسلامية – المجلد العاشر . ترجمة أحمد الشفتناوي ، وحافظ جلال .

١٠ – ديوان محمود سامي البارودي . شرح وتعليق : علي عبد المقصود عبد الرحيم – دار الجيل – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٩٥ م .

١١ – شعراء الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة . د / علي نجيب عطوى – المكتب الإسلامي ببيروت – الطبعة الأولى – ١٩٨١ م .

١٢ – شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي . عباس محمود العقاد – دار نهضة مصر – القاهرة – بدون تأريخ .

١٣ – العصر الإسلامي . د / شوقي ضيف – دار المعارف – الطبعة الثامنة – بدون تأريخ .

١٤ - العقد الفريد . ابن عبد ربه الأندلسي - تحقيق : محمد سعيد العريان - طبعة دار الفكر - بدون تأريخ .

١٥ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . ابن رشيق القيرواني - تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد - دار الجيل - بيروت - الطبعة الرابعة - ١٩٧٢ م .

١٦ - فصول في الأدب الحديث والنقد . د / يوسف عز الدين - طبعة دار العلوم للطباعة والنشر - الرياض - ١٩٨٢ م .

١٧ - في الأدب الحديث . د / عمر الدسوقي - دار الفكر العربي - الطبعة السابعة - دار العلم للملايين - ١٩٨٠ م .

١٨ - في الأدب العربي المعاصر - القسم الثاني . د / إبراهيم عوضين - مطبعة السعادة - الطبعة الأولى - ١٩٧٦ م .

١٩ - في الشعر العباسي - الرؤية والفن . د / عز الدين إسماعيل - المكتبة الأكاديمية - ١٩٩٤ م .

٢٠ - في الشعر العباسي نحو منهج جديد . د / يوسف خليف - مكتبة غريب - بدون تأريخ .

٢١ - قضية التصوف المنقذ من الضلال . د / عبد الحليم محمود - دار المعارف - الطبعة الثانية - بدون تأريخ .

٢٢ – لسان العرب . ابن منظور المصري – طبعة دار لسان العرب – بيروت – إعداد وتصنيف : يوسف الخياط ونديم مرعشلي .

٢٣ – محمود سامي البارودي . د / عمر الدسوقي – دار المعارف – سلسلة نوابغ الفكر العربي – الطبعة الخامسة – ١٩٩٣م.

٢٤ – محمود سامي البارودي . د / محمد صبري – مكتبة الشباب بالقاهرة – ١٩٢٣ م .

٢٥ – محمود سامي البارودي شاعر النهضة . د / علي الحديدي – مكتبة الأنجلو المصرية – الطبعة الثانية – ١٩٦٩ م .

٢٦ – المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول . د / عزيز فهمي – تحقيق : محمد قنديل البقلي – دار المعارف – بدون تأريخ .

٢٧ – النقد الأدبي . د / أحمد أمين – دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الرابعة – ١٩٦٧ م.

٢٨ – النقد الأدبي الحديث . د / محمد غنيمي هلال – دار الثقافة – بيروت – طبعة عام ١٩٧٣ م .

الفهرس



رقم الإيداع بدار الكتب
٩١٥٥ / ٩٨
الترقيم الدولى 6427 – 19 – 977

دار الجيار للطباعة والنشر